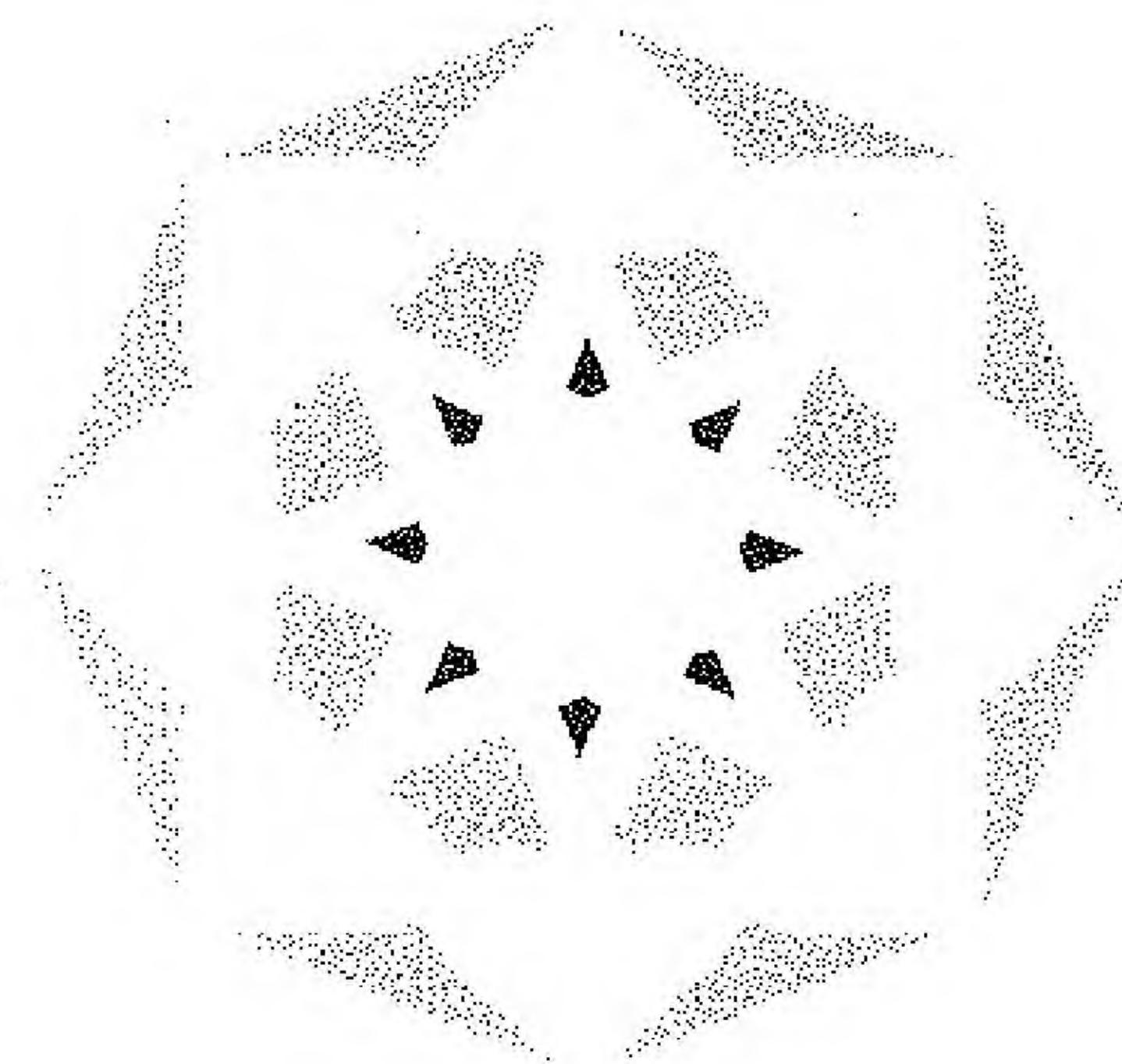


جَانَ الْبَرَا

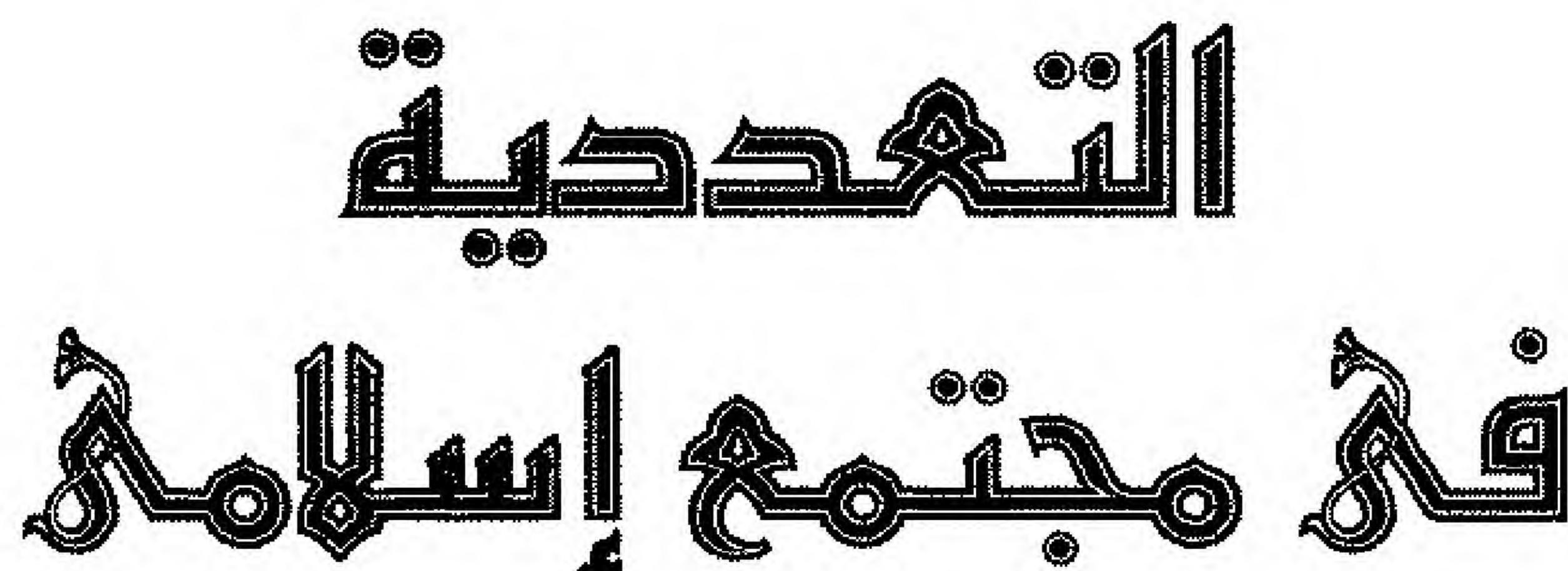
الْعَدْدُوُسُ  
الْعَدْدُوُسُ  
فِي مُجَتَّعِ إِسْلَامِيٍّ



دار الفکر الایسلامی



**جمال البناء**



دار الفكر الإسلامي  
١٩٥ ش. الجيش - ١١٢٧١ القاهرة - هاتف وفاكس: ٥٩٣٦٤٩٤  
e-mail: gamal\_albanna@infinity. com.eg  
<http://www.islamiccall.org>



# جمال البناء

رئيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

مدير مؤسسة هوزية وجمال البناء

للثقافة والإعلام الإسلامي

رائد دعوة الأحياء الإسلاميين

١٩٥ ش. التحيش ١١٢٧١ - القاهرة - هاتف وفاكس ٠٩٦٣٤٩٤

e.mail: gamal\_albanna@infinity.com.eg

<http://www.islamiecall.org>

## مقدمة



والحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله

تصور البعض أنه لما كان الإسلام دين التوحيد، فإن التوحيد ينبع  
على كل شيء فيه بما في ذلك المجتمع ومظاهره وتجلياته من نظم ولو ضائع  
وفنون وأدلة وعادات وسلوك وأزياء الخ... فلا يوجد إلا نمط واحد في كل  
مجال من هذه المجالات وهو ما يضع المجتمع الإسلامي في قلب واحد لا  
يختلف ولا ينطور ولا ينعد.

وقد يذكر في هذا الصدد "الوسطية" التي ينادي بها بعض المفكرين  
باعتبارها الموقف المختار للمجتمع الإسلامي تجاه التيارات المتعارضة  
يميناً، ويمساها، شرقاً، غرباً، وهو تكييف سليم، وقد نص عليه القرآن. فلم  
يقل القرآن "أمة التوحيد" ولكنه قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً). ولكن هذا  
نفسه لا ينفي التعددية، بل هو يثبتها لأن الوسطية تفترض وجود الإفراط  
والتفريط، التحلل والتزمت، الإسراف والتغفير للدخن... ولا يمكن تصور  
ومسطبة حيوية بدون تعددية، وإلا تصبح هي الوسطية الرياضية التي تعنى  
التوسط بين نقطتين لو أنها تتجسد في قلب واحد وتأخذ طابعاً ثبوتاً، وهو ما  
يتناقض مع حيوية وديناميكية الإسلام.

ويرى هذا البحث أن التوحيد في الإسلام إنما أرسى دبره الله تعالى  
وحده، وأن سحب هذه الصفة (الواحدية) على غيره أمر لا يجوز، بل إنه قد  
يصبح شكلا من أشكال الشرك. لأن الله تعالى قد تفرد بهذه الصفة،  
وأضافها على غيره شرك به. فتوحيد الله يستتبع تلقائنا للتعددية فيما عداه .

ونحن في استخدامنا لهذه الطريقة إنما نتبع الأسلوب الغربي الذي  
صاغه الإسلام في إثبات الوجوب ببنفي ما عداه. والشاهد الأعظم على هذا  
هو "لا إله إلا الله" فهنا يثبت الإسلام وجود الله في الوقت نفسه الذي ينفي ما  
عده ولو أنه قال "الله موجود" هذه الصيغة وإن ثبتت وجود الله، ولكنها لا  
تنفي ضرورة ما عداه - أي أن يكون له أندادا - في حين أن "لا إله إلا الله"  
يثبت الله وتنفي ما عداه .

ومن هنا فإن لقب "دولة التوحيد" الذي يرسله البعض في اعتراض  
وفخر ليس وصفا سليما من ناحيته، فالإسلام ليس دولة، وإنما هو <sup>(١)</sup> أمة،  
وهذه الأمة تأخذ بالتعددية لا بالواحدية كما لا يمكن أن يقال "دولة الفضيلة"  
لأن نصيب الدولة في إقامة الفضيلة أو تعزيزها تافه، بل قد يسودى تدخل  
الدولة في هذا المجال إلى المساس به. والتعبير الصحيح هو "أمة العدل" لأن  
الإسلام بالنسبة للتجمع البشري "أمة" ولأن طابعه الرئيسي في القيم  
الاجتماعية هو العدل .

وقد وضع الإسلام للمجتمع البشري كيفية أوردها القرآن الكريم تقوم  
على تفاعل ركيائز أو قوى. فهناك هداية الأنبياء التي تعين الإنسان على  
سلوك الطريق المستقيم، وهناك غولية الشياطين التي تلقي بهـ فـى لـجـجـ  
الشهوات والشرور، وهناك الإنسان نفسه الذي يملك بما خرس الله فيه من  
عقل وفطرة أن يتجاوب مع هداية الأنبياء، كما يمكن - في حالات أخرى -

(١) ستكون هذه الإشارة موضوع الكتاب التالي من دفتر الإحياء "الإسلام دين ولامة  
وليس دين ودولة .

أن يستعمل لغوية الشياطين بالتفصيل الذي سيرد في هذا الكتاب، فالمجتمع البشري له طبيعة تعددية.

والمجتمع الإسلامي لا يشدّ نوعياً عن المجتمع البشري، لأن الإنسان مسلماً أو غير مسلم، له طبيعة واحدة، ولكن المجتمع الإسلامي يختلف في الدرجة وليس في الطبيعة، وفي بعض التجليات، وليس في كلها، فلا جدال أن في الإسلام قوة خاصة تكيف ملوك المؤمنين به، وفيه من الضمانات ما تحول دون الاعتناء الكامل للشهوات والشرور لو الانسياق وراء خطأ الشيطان. أو لتهاج للشرف والشطط، ولكن هذه الضمانات قد لا تحول دون ممارسات أخرى من ذلك لأن للطبيعة البشرية - بعد كل شيء - حكمها وضعفها، ولأن الله تعالى عندما جبل النفس البشرية "إلهها فجورها ونقوتها"

وأى محاولة لفرض قاتل واحد مصمت على المجتمع بدعوى التوحيد الإسلامي، أو حتى الوسطية الإسلامية، وأى تجاهل للعوامل العديدة التي تؤثر في هذا المجتمع لو تدق في وجه التعددية تكون محاولة محكوم عليها بالفشل بعد أن تستهلك وقتاً وجهداً كان البناء الرشيد والقصد السعيد أولى بها وهذه هي قيمة المعرفة، إذ هي تميز ما بين الخطأ والصواب كما تهدينا إلى السبيل الموصلة والوسائل الناجحة. فإذا لم تكن لدينا المعرفة بهذا كله تخبطنا وتوزع علينا الطرق وغلبت المماحكة لو غرتنا الأمانة وخدعنا الصراي فنمضي طويلاً دون أن نصل إلى شيء.

ولكي لا يحدث هذا وضمنا هذا النقرن من دفاتر الإحياء، وأن يكون الثالث، بعد الحرية وتحوير القرآن هو ما يعبر عن الأهمية الكبيرة للموضوع في الفهم السليم للإسلام ...

## جمال البناء

تحرير في: ٢٠٠١  
القاهرة في: ١٤٢٢  
المحرم

## الفصل الأول

### توحيد الله يستقيم التحدمية في كل ما عداه

لم يصل دين من الأديان بتوحيد الله إلى الحد الذي وصل إليه الإسلام، وقد أهدرت اليهودية المعنى المطلق للتوحيد عندما جعلت الاهماها الواحد إليها خاصاً ببني إسرائيل، ومن ثم فلا معنى للحادي في التوحيد في اليهودية. أما المسيحية فقد أفت ظللاً كثيفاً على الاهماها الواحد بفكرة الأقليم الثلاثة، فإذا أريد للتوحيد ياجلى معاناته فليس إلا الإسلام.

فالله في الإسلام هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وقد لسبه القرآن الكريم في عرض صفاتيه تعالى وكلها تصب في هذا المعنى فهو الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء. ونهى القرآن عن أن يضرب المؤمنون له الأمثال لو أن يجعلوا له أنداداً لأنه لا مثيل له.

وقد أمل الفلسفه القدامي أن يصلوا إلى الجوهر للفرد الذي لا يتجزأ، وظن بعضهم أنه يمكن الوصول إليه، وأنه سر الكون، ولكن هؤلئك ثبت العلم الحديث أن ليس في الموجودات والقوى والعناصر جوهر فرد أو عنصر لا يتجزأ لكل شيء يتجزأ إلى ما لا نهاية، وكل جزء يرتبط

وينفصل عن بقية الأجزاء والجميع يدورون بانتظام لو بالتعبير المعجز «كل في ذلك يسبحون» .

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الله الواحد الأحد فإنه يتحدى الإدراك الإنساني رغم ما يبدو من بساطته وبداهية فكرة الوحدة فما أن يفكر الإنسان حتى يعجز عن تصورها لأنه يعجز عن تصور كائن غير مركب من أجزاء وهو يتصور أنه إذا لفتت الأجزاء فتفى الكيان، ولا يوجد شيء، وليس إلا العدم ومن ثم فيما أن يكون مركباً من أجزاء وإنما إن لا يكون، خاصة وأن القرآن يعزز ويعمق فكرة التوحيد وينزع عنها كل شوائب التجسيد والتوضيحة، وأضفي عليها في الوقت نفسه الحياة والقدرة والإدراك والحكمة والسمع والبصر و٩٩ لسما من الأسماء الحسنى بجملة الصفة الهامة التجريد ..

وعندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه "الباقي" أو "الذى لا يموت" فإنه بالتبعية ينفي أن يكون شيء لا مخلوق هذه الصفة - فكل ما نراه يتعرض للتغير، وللموت وللفناء - (كل شيء هالك إلا وجهه)، وللموت هو مصير الجميع في هذه الحياة الدنيا (كل نفس ذائقة الموت). (أينما تكونوا يدرككم الموت) .

ولو قلنا إن هناك خالقاً غير الله وباقياً غير الله لكن هذا شركاً بالله وخروجًا عن "التوحيد" الإسلامي لأنه يشرك أحداً فيما خص التوحيد الإسلامي الله تعالى - وحده - به .

وكذلك عندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه الواحد الأحد، فمعنى هذا أن ليس في الكون أو المجتمع لطيبة ولكن تعديلاً يمكن أن تصل إلى مئات وألاف الصور .

وقد ضل الفلاسفة وبعض الذين تحدثوا عن "وحدة الوجود"، ووهم الشعراء الذين تصوروا الله تعالى في الشمس للبازغة والزهرة البانعة والجمال الإنساني فهذه كلها من آيات الله في الخلق في أحسن تقويم، ولكنها ليست صفاتاته ولبعد منها أن تمعن ذاته .

كما ضل كل من تصور أنه يمكن بحكم ليمانه وتفانيه في حب الله تعالى أن يصل إلى درجة من القرب بآياته توجد نوعا من التوحيد فهو يهات لأن الإنسان أن يصل إلى هذا ولم يصل الرسول إلا إلى "قاب قوسين" من سدره المنتهي لأن ما بعد ذلك يخالف طبيعة التوحيد ويمكن أن يصل إلى حد الشرك .

وعندما يقول الله تعالى في عشرات، لو مئات الآيات أنه الخالق، فإنه ينفي بالتجزءية أي خلق لغير الله تعالى ويصبح من ينسب قدرة الخلق إلى غير الله مشركا، وهو الذنب الوحيد الذي أعلن الله تعالى أنه لا يغفره إلا أن يتوب .

وهو لا يكتفى بهذا المعنى الضمني، بل يعطيه مرارا وتكرارا فمن غير الله يخلق؟ إن كل شيء عدا الله تعالى مخلوق ..

ووصل حرص الإسلام على إفراد الله تعالى وحده الخالق. أن حرم الإسلام في المرحلة الأولى لظهوره التصوير ونحت التماثيل لأنها نوع من "الخلق" يمكن أن يؤدي إلى الوثنية، خاصة والعرب حديثو عهد بها. فجاء في الحديث "من لظلم من ذهب يخلق كخالي فليخنقوا ذرة" .

ولا يجوز لأحد أن يقول عن سيده "ربى" ولكن سيدى كما لا يجوز للسيد أن يقول "عبدى" ولكن هنائى ..

ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله فيقول مثلاً "والله لا يغفر الله لـه"! فمن ذا يتألى على الله، ومن ذا يعلم ماذا ميفعل الله .

ورفض القرآن فكرة أن يعبد العرب أوثانا **(ابغرونَا إِلَى اللَّهِ زَانِي)**  
وندد بالذين اتخذوا ألحانهم لربابا دون الله، وفسر الحديث ذلك بأن هؤلاء  
الألحان كانوا يحللون ويحرمون، وهذه المهمة هي ما يتفرد بها الله تعالى  
**فهيام الألحان** بها نوع من الشرك .

بل حتى الشفاعة، التي ليست إلا رجاء وسؤالا، لا يجوز إلا لمن  
أذن الله وبضوابط موضوعة - لأنه إذا عدلت هذه الضوابط فيمكن لن تتحول  
**الشفاعة إلى الشرك** لو أن تقارب الشرك .

من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان من وجود  
مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد بما هو ليس  
ووهم بل مفارقة لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعدية فيما سواه  
وأن هذه التعدية تصبح لمرا لازما بحكم الوحدانية الإلهية، لأنها تعد  
للضرورة المنطقية أمام الوحدانية الإلهية حتى لا تتطرق بشاربة من  
شرك لمعنى التوحيد الإلهي - وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو  
الذي أراد هذه التعدية ووضع لها لياتها حتى لا يتطرق للخلال إلى  
**هذه التعدية وبهذا تجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالى والتعدية**  
**المضبطة بالنسبة للمجتمع .**

## **الفصل الثاني** **إشارات القرآن إلى التعددية**

---

كل من يتتصفح القرآن الكريم، ويتأمل سورة سورة، يجد أنه بمقدار ما حرص على إيراز وتأييد التوحيد بالنسبة لله تعالى يقدر ما أبرز التعدديات فيما عداه .

بل إن القرآن نفسه كان من أكبر مصادر التعددية، ذلك لأن أسلوبه المجازى وصياغته المتميزة للكلمة تجعل لها معانى متعددة، فما من كلمة قرآنية لو لية إلا ويمكن تقديم عدد من التفاسير لها لأن القرآن أنسزل لكل المسلمين في كل العصور وكان سر الأعجاز القرآنى أن الكلمة القرآنية تتسع للتلويل يتفق مع مفاهيم العصر الحديث، كما تقبلتها مفاهيم العصر القديم. بل إن الأحكام (العقوبات) القرآنية نفسها التي يفترض فيها التحديد - صيغت بصورة عامة مما استوجب أن تقوم السنة بدور كبير في "البيان" القرآنى، ونشأت عن هذا كله مجلدات التفاسير والحديث وما بني عليهما من فقه وسمح جو الحرية الأولى بظهور المئات والألاف من التعدديات في العقيدة والشريعة قبل أن ينغلق باب الاجتهاد .

## فالقرآن نفسه يعد من أكبر مصادر التعديدية، لو فل إله الأصل في التعديدية الإسلامية .

ويوضح لنا القرآن صوراً من التعديدية أبعد وأكثر مما يتصوره أنصارها.. فهذا الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه ليس إلا وحدة صغيرة من ملايين أو حتى بلايين الكواكب تفصل ما بين الأرض وبينها مئات السنوات الضوئية، وي高出 بعضها الأرض حجماً مرات عديدة، ومرات أخرى فإن كل هذه الكواكب وال مجرات التي يضمها الكون ليست إلا عالم "الشهادة" وهناك عالم آخر يطلق عليه عالم الغريب.. يبدأ حيث ينتهي عالم الشهادة، وفي عالم الغريب هذا جنة ونار، وعداب وثواب ..

وفي عالمنا الصغير - كوكب الأرض - تتعدد الأنهار والبحار وبختاف الليل والنهار وترتفع الجبال والهضاب وتختفي السهول والوديان.. وهناك أنواع بمئات الآلاف من الحشرات والطيور والنباتات لما الإنسان نفسه فرغم أنه واحد يسير على قدمين فإنه متعدد الجنسيات والألوان والأسماء واللغات والأديان والمعتقدات فالكون الأرضي ومجتمعه الإنساني ليعد ما يكون عن الوحدية .

ولستبعد القرآن أن يكون الناس أمة واحدة ينظمهم لتفاق ورأي بفهم مختلفون، وسيظلون مختلفين تميز بعضهم عن بعض للون البشرة ولغة اللسان والعقائد والاتمامات.. وأنهم في الأمة الواحدة ملائكة.. وخلف.. يختلف بعضهم عن بعض وأعتبر من آيات الله (اختلاف المستكم والولائم)، وما أكثر مادة "اختلاف" في القرآن "اخْتَلَفَ" - اخْتَلَفْتُمْ - اخْتَلَفُوا - تَخْتَلِفُونَ - خَلَفَ - اخْتَلَفَ - مُخْتَلِفٌ" وهذه كلها تدل على مساحة واسعة لاختلاف وبالنالى التعديدية ...

ولذا كان القرآن الكريم قد وصف أمة المسلمين إنها "واحدة" فهذا يعني أنها واحدة في عقيدتها ولكنها لا ينافي عناصر التمييز والاختلاف والتنوع بين شعوب وفصال هذه الأمة داخل الإطار الفسيح للعقيدة الواحدة

على أن القرآن الكريم لا يكتفى بهذه الإشارات العامة إلى التعددية ولكنها يقرنها بعدد من القواعد التي ترسى التعددية، ثم يصل إلى الغاية عندما يقرر التعددية الدينية وتعيش الأديان جنباً إلى جنب .

ومن القواعد التي ترسى التعددية في القرآن الكريم :

١. النص على أن الله تعالى خلق كل شيء من زوجين، وبهذا نفي الوحدانية من المجتمع وأثبت التعددية ابتداء من زوجين أو "زوجاً" بصفة المجتمع .

□ «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض» . {٣٦ يس}

□ «وأَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» . {١١ فاطر}

□ «أَوْ لَمْ يَرُوا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» .

{٤٦ الشعراوي}

□ «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا زَوْجَيْنِ لِعِلْمِكُمْ تَذَكَّرُونَ» . {٤٩ الذاريات}

فهناك تعددية حتمية أنتها " الزوجية " ..

٢. تقرير مبدأ الدرجات بما يتضمنه ذلك من تفاوت، وبالتالي تعددية وقد استخدم القرآن كلمة "درجة" لمميز بها بين فئات من المؤمنين فقل ..

□ «لَا يُسْتَوِي الظَّالِمُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْهَاهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَلَنفْسِهِمْ، فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَلَنفْسِهِمْ عَلَى الظَّالِمِينَ دَرْجَةٌ، وَكَلَّا وَعِدَ اللَّهِ الْحَسِنَى، وَفَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الظَّالِمِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» . {٩٥ النساء}

□ (ولكل درجات مما عملا، وما ربك بغافل عما يعملون) .

{١٢٣ الأعلم}

□ (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم) .

□ (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) .

□ (ورفعنا بعضكم على بعض درجات) .

وحتى بالنسبة للأطياء ..

□ (ذلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلام الله، ورفع بعضهم درجات) .

٤. تقرير مبدأ استباقي الخيرات، وجاء تصوير القرآن لهذا المبدأ متضمنا حرية انتلاق الأفراد من منطاقاتهم الخاصة ..

□ (ولكل وجهة هو مولىها، فلستيقوا الخيرات ...) .

□ (... لكل جعلنا منكم شرعيه ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم لامة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم، فلستيقوا الخيرات لسي الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

□ (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

□ «ثُمَّ لَوْرَثَا الْكِتَابَ الَّذِينَ لَصَطَفَنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَلِيقٌ بِالخَيْرَاتِ يَأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكُ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» .

{٢٤ فاطر}

□ سَلِيقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ {٢١ الحديد} .

٤. تقرير مبدأ "التدافع" وهو أقوى من مبدأ مستباقي الخيرات، وقد جاء في  
سورة البقرة والحج .

□ «وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعِصْمِهِمْ بِإِعْصَمِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو  
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» {٤٥ البقرة} .

□ «إِذْنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقِيلٌ الَّذِينَ  
أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ  
النَّاسَ بِعِصْمِهِمْ بِإِعْصَمِ الْأَرْضِ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَواتَ وَمَسَاجِدَ يَذَكِّرُ  
فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا» {٣٩-٤٠ الحج} .

وهذا المبدأ يصور المجتمع وفعالياته، والصراع ما بين الحق ودعاته  
والباطل وأشياعه، كما يشير إلى بعض تجليات التعديبة في الصوامع  
والمساجد والصلوات والبيع ...

#### ٥. شمول العطاء الإلهي ..

تحدث القرآن الكريم عن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الأخوة، لو  
الذين يستسلمون للمغريات، وتقبل هذا كأمر واقع بحكم الضعف البشري  
الذي يستولي على بعض الناس. ولووضح أن عطاء الله ليس محظورا عليهم،  
ولأن حسابهم لا يكون في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة ..

□ ( من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحوراً. ومن لراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فلولذلك كان سعيهم مشكوراً كلامه هو لاءٌ وهو لاءٌ من عطاء ربك وَمَا كُلُّ عَطْيَةٍ رِّبِّكَ مُحَظَّرٌ ) . { ١٩ - ٢٠ الإسراء }

□ ( من كان يريد حرب الآخرة نزد له في حربه، ومن كان يريد حرب الدنيا نؤته منها، وما له في الآخرة من نصيب ) . { ٢٠ الشورى }

٦. تقرير مبدأ حرية الاعتقاد - ولعل تقرير القرآن لهذا المبدأ - أعظم دليل على تقرير التعددية في مبدأ هو صلب الآيات جميعاً : الاعتقاد، وجاء تقرير القرآن له صريحاً لا يقبل لبسأ، وفي العديد من الآيات التي يضيق هذا الموجز عن استيعابها مثل :

□ ( لا إكراه في الدين قد تبين للرشد من لغى ) . { ٤٥٦ البقرة }

□ ( ... فمن يهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ) . { ١٠٨ يونس }

□ ( من اهتدى فإنما اهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزد وزرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ) . { ١٥ الإسراء }

□ ( وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) { ٢٩ الكهف }  
وأوضح القرآن أن الدعوة إلى الإسلام لا تستتبع قسراً أو إغراء.. لو حتى ما لابد وأن يساور نفس الداعية من أمل في الهدالمة وضيق بالرفض.. لأن الهدالمة من الله ودور الرسول هو البلاغ وليس له أن يأمر بالرفض . لأن الرافضين .

□ ( ليس عليك هداهم.. ولكن الله يهدي من يشاء ) . { ٧٧٢ البقرة }

□ «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جمِيعاً أفلنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تومن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون». {١٠٠-٩٩ يونس}

□ «لَكَ لَا تُهْدَى مِنْ أَحَبِّتْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يُهْدِي مِنْ يَشَاءُ». {٥٩ الفصل}

□ «فَلَعْلَكَ بِأَخْعُنْ نَفْسَكَ عَلَى أَثْلَارِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا». {٦ الكهف}

□ «إِنَّمَا مِنْ لِسْنَةِ إِنْجِيلِيَّةِ أَنَّهَا مُسْتَقَدَّةٌ مِنَ الْأَيْمَةِ ...

٧. تقرير القرآن أن الأصل في الأشياء الحل، وفي الأعمل لا يحله، وهى وإن كانت صياغة فقهية إلا أنها مستندة من الآية ...

□ «كُلُّ طَعَامٍ كَانَ حَلًا لِبْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ». {٩٢آل عمران}

□ «وَسُخِّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا». {١٣ الجاثية}

كما أن ذلك هو مفهوم جعل التحرير والتخليل وفقاً على الله تعالى وحده فيما ينص عليه في القرآن الكريم جلياً وصريحاً، ومثل هذه التحريرات معدودة ولا تمس الأصل الذي هو الحل، وما يعنيه من تحديداً.

\* \* \*

ويثبت تقرير القرآن لهذه القواعد، أن القرآن الكريم يفهم المجتمع البشري تفهمها صحيحاً وعميقاً، ويحترم طبيعته، وأنه لم ير هذه الطبيعة جسماً صلباً يستعصي على التطوير، كما أنه ليس جسماً طرياً تستسير فيه سكينة الإصلاح كما تستسر في قلب زيد.. وليس هو أيضاً عجينة رخوة

هلامية، ليس لها قوام ويمكن تشكيلها حسب الإرادة أو الطلب. وإنما هو كيان معقد مركب متعدد يتفاعل بطريقته الخاصة، وله الطبيعة الحضوية للجسم الإنساني الذي يكتسب وجوده وحياته من الأعضاء والدم والأنسجة والأعصاب والمعظام، كل منها يؤدي وظيفة محددة، وله الهيئة التي تمكّنه من هذا وفي الوقت نفسه فإن عمل كل عضو من هذه الأعضاء يتلاقي ويتجاوب مع عمل بقية الأعضاء، وكلها تصب في مجرى واحد وتستهدف نهاية واحدة هي صحة الجسم الإنساني وقيامه بمهامه نتيجة للتخصص الدقيق والتجارب التلقائي بين كل هذه التخصصات، ويتم هذا بتعمّة واسعة تفوق في بعض الحالات لمح البصر.

ويصدق هذا التصور على جسم كل فرد من البلايين الذين يمثلون مجموع الجنس البشري وفي الوقت نفسه فما من فرد من هذه البلايين يشبه الآخر شبهًا تاماً في كل شيء، وقد نجد عدداً من الأخوة الأشقاء لأب وأم، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر.. فبعضهم يرث صفات عن أمه، وبعض الآخر عن أبيه وبعض الثالث عن صفات مضموره في الأعمام والأخوال والأجداد الخ... وما من واحد منهم له بصمة يد تشبه بصمة أخيه. فضلاً عن الآثار الاجتماعية المكتسبة والمختلفة لكل واحد كحظه في الزواج والعمل، والموضع الذي يعيش فيه والتعليم الذي ناله.

هذه هي صورة المجتمع البشري، والقرآن الكريم الذي تنزل من لدن خالق هذا المجتمع. يعامل المجتمع تبعاً لهذه الطبيعة.

وكان يجب أن تؤدي طريقة تعامله مع المجتمع البشري وبشراته المتكررة التي تصب في بحيرة التعذيبة لجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً تعذيباً بمعنى الكلمة تزدهر فيه الآراء.. وتتلاقص الأفكار ويندلي كل واحد ببلوه، ويرفع كل واحد صوته ولكن هذا لم يتحقق إلا في بعض جوانب الحياة، ولفتره محدودة مما جعل الإنسان يتتسا حل كيف حدث هذا، ولماذا ...

لقد كانت الفترة الذهبية القصيرة في تاريخ الإسلام هي الفترة النبوية والخلافة الراشدة، وقد حدثت في مجتمع سادج بسيط هو المجتمع ما بين مكة والمدينة فلم يتطلب تعدديّة كبيرة، ومع هذا فإن صحيفات المواعدة التي وضعها الرسول غداة قدومه المدينة، واعترفت باليهود جنباً إلى جنب الأنصار والمهاجرين واعتبرتهم "أمة واحدة" نموذج فريد في تقبل التعددية على قيم المساواة وداخل إطار فسيح يضم مختلف الأعراق والديانات.

كما أن موقف الرسول من "المنافقين" الذين صرخ القرآن بکفرهم، وعدم اتخاذ إجراء نحوهم، بل صلاة الرسول على جنة كبر لهم عبد الله بن أبي هى صورة نادرة من السماح بوجود الآخر.. وقبول ما يعلنه رغم أنه يضر عكس ذلك الأمر الذي يضع مبدعاً من أخطر المبادئ وأهمها هو أن المحاسبة تكون على الظاهر، أما باطن الإنسان، وما يقر في أعماقه وبين جنبيه فيجب أن لا يكون موضوعاً لبحث أو محاسبة، كما يجب ملاحظة أن إشارات القرآن الخاصة بحرية الاعتقاد كانت في أصل سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى وإقراره كل ذي دين على دينه على تقدير سيامسة الدول الأوروبية التي كانت تفرض على اليهود والمسلمين نبذ دياناتهم والإيمان بال المسيحية حتى مشارف العصر الحديث.

ولو استمر التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي، ولم ينتهي بما أوقفه، لكان من المحتمل أن تصل التعددية في هذا المجتمع إلى مستوى قريب مما وصلت إليه التعددية في المجتمع الأوروبي لأن طبيعة التعددية تملئ عليها ظهور التجليات العديدة للنفس البشرية حسنة أو سلبة، وصور الإغراء وإشباع الشهوات بمختلف الطرق، وسفرى التكيف "الشرعي" لمثل هذا الوجود. في المجتمع الإسلامي طبقاً لما يقرره القرآن، ولا زهرت الفنون والأدب ومشاركة المرأة في حياة المجتمع، ولما فقد المجتمع جمالياته التي جعلته يشبه صحراء غيراء بلقع.. إن هذا التطور لم يحدث، فقد قضت عليها النظم الحاكمة الاستبدادية والتقاليد الفقهية المغلقة.

ويصور تطور الفقه الإسلامي هذه المأساة ففي فترة الازدهار طول  
القرون الثلاثة الأولى تعددت الاجتهادات تعدداً ووصل إلى حد البلبلة،  
وتنوعت، وتناقضت الأحكام في المدينة الواحدة وبقدر ما كان هذا يدل على  
درجة عالية من الحرية والخصوصية في الفكر، يقدر ما كان يتطلب نوعاً من  
التنظيم، ولكن هذا تأبى على المجتمع وقتئذ. فالتجأ الفقهاء إلى إغلاق بباب  
الاجتهاد.. وكانت تلك بداية النفق المظلم الذي سار فيه الفكر الإسلامي فرقة  
عشرة قرون فقد تجمد الفقه، وحبس في قميس المنطق الصوري الأرسطي،  
وتجمد معه الفكر الإسلامي.. و شيئاً فشيئاً أصبح الفقهاء هم رجال القانون  
الذين يحفظون النظام القائم ويغيرون عن سياساته، وبذلك فقد المجتمع  
الإسلامي حرية الفكرية بعد أن فقد حرية السياسية .

والحرية هي لم التعددية فإذا لم تعد حرية فليس هناك تعددية  
ومع هذا فإن المجتمع الإسلامي بحكم الحيوية لفلاحة الإسلام  
والروح الثورية والتحررية للقرآن، لم يفقد صوراً عديدة "لتعددية" ظهرت في  
العصر العباسي في بغداد ما لم يظهر في روما من التعددية الفكرية ما يبيّن  
الإلهاد (أو الزندقة كما كانوا يقولون) حتى التزمت ظهورت الطرق الصوفية  
وازدهرت بينما انتعشت دعوة "إخوان الصفا" لغامضة المتحررة ووجدت  
من الملل والنحل ما ملأ كتاب ابن حزم والشهرستاني، وما يصعب تصوره  
الآن، وفرأها عن ندولت تجمع الصوفي، والمحدث والمتكلم والفقير لا يرفض  
أى واحد منهم الآخر، ولكن يكتبه إلى خالقه .

أما في القضية الخامسة "المراة" التي كان يمكن أن تكون لصلاة عدد  
كبير من التعدديات فإن إشارات القرآن إلى تحريرها ومسؤولتها، ومعاييرها  
الرسول المتعاطفة مع المرأة. لم تتوجه كلها في افتلالع "حمية الجاهليّة" التي  
انتقلت من العهد الجاهلي حتى العصور التالية.. وكان المجتمع الجاهلي الذي

يقوم على النهب والسلب لا يعترف بالمرأة لأنها لا تحارب ولا تأتي بغنيمة وترسب هذا المعنى في نفسية المسلمين حتى بعد أن تغير المناخ الاجتماعي في بغداد، وقد حل هذا المجتمع مشكلة المرأة باتخاذ الإمام (الجواري) والقيان والسماح لهن بأداء دور يكسر حدة يبعد المرأة عن الحياة وحياتها في البيوت بحيث سمح هذا التطور بظهور صور من المجتمع المختلط وإن لم تكون الصورة ملائمة ..

\* \* \*

فإذا كان انعدام التعديبة في المجتمعات الإسلامية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى فقد هذه المجتمعات لحرياتها السياسية والفكرية، وليس إلى سبب أصولي في الإسلام فإن استعادة هذه الحرية يمكن أن تتحقق التعديبة، وتلك هي المشكلة التي يكون على المجتمع الإسلامي الحديث أن يجاهدها بقوه، ذلك أن الألفة الطويلة لعهود الانغلاق كادت تطمس الإشارات المتكررة للقرآن الكريم عن الحريات والتعديبات خاصة بعد أن قام المفسرون بتأويلها تأويلات تميل بها عن هدفها كما حدث بالنسبة لحرية الاعتقاد يدل على ذلك متابعة المفكرين المسلمين المحدثين لما ذهب إليه الفقهاء القدامى من تطبيق حد الردة على كل من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، إذا رفض الاستتابة، وهو نص منافق لكل آيات حرية الاعتقاد في القرآن الكريم التي عرضنا لها، بل ومنافق لسلوك وعمل الرسول الذي لم يحدث أبدا أن أوقع هذا لمجرد تغيير الدين، وإنما حرم إلى ذلك مقاومة الدولة والتخلص عن الجماعة والانحياز إلى الأعداء ..

وهو ما يدل على ضرورة معالجة القضية في صورتها التي يمكن أن تأخذها عمليا معالجة لا تخشى المصارحة بل تقوم على المجابهة ...

## **الفصل الثالث**

### **تقربو تحديديه الأديان**

---

يصل القرآن إلى الغاية في التعددية عندما يقرر - وهو الذي يختلف عن المسيحية واليهودية وبقية الأديان الأخرى - قبول وجود هذه الأديان والتعايش معها ..

وهذا الموقف الفريد - لأننا لا نعلم مثيلا له بين الديانات الأخرى - يعود إلى سببين أولهما تاريخي وثانيهما موضوعي .

أما السبب التاريخي فإنه يعود إلى النشأة التاريخية للديانات المسمووية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

فكم هو معروف فقد ولد سيدنا إبراهيم في العراق وعاش رحما من الدهر في "لور" "الكلدانية" ثم تنقل ما بين مصر وفلسطين حتى ملت ودفن في بئر سبع .

وكانت زوجة إبراهيم "سارة" عاقرا فندفعت بسيدة جاءت إليها من مصر هي هاجر إليه ليتزوجها عسى أن تلد له ولدا. وهذا ما حدث فقد ولدت له هاجر بكر لبنيه "إسماعيل" وتملك الغيط والغيرة مسارة، ودفعت

زوجها لأن يبعد هاجر وأبنها عنها. فأخذهما إلى الحجاز ولودحهما ذلك المكان الذي سيصبح أقدس الأماكن، وتركهما. وبعد فترة اشتد العطش بسها وبطفلها، وأخذت تروح وتتجوّل بحثاً عن المياه حتى عثرت على بئر زمزم فارتوى، ولاذ بالبئر نفر من العرب، ونشأ إسماعيل معهم وتزوج منهم ولتصبح رأس العرب العذنابيين الذي سيولد منهم رسول الإسلام العظيم محمد بن عبد الله .

وقد لا يفهم الإنسان الحكمة في هذه العملية كلها، وقد يستشعر غيظاً من سارة التي أصرت على يعاد هاجر وإبراهيم الذي لطاعها، ولكنها كانت مسيرة بن بارادة الله وبعذابه الذي شاء أن يستقل هذا الفرع من لسرة إبراهيم بدين هو الإسلام.. ويشعب هو للعرب .

ولنعد إلى المياق فبعد أن عاد إبراهيم إلى موطنها لوحى إليه الله تعالى أن سيرزق من سارة العجوز بابنين هما لسحق، ثم يعقوب .

ومن يعقوب الذي يطلق عليه إسرائيل جاءت الأسباط التي كونت شعب بني إسرائيل وتنكر بالنسبة ليعقوب ما حدث بالنسبة لإبراهيم فقد وقعت المجاعة للمجاعة بديارهم وأرسل يعقوب بعض أبنائه إلى مصر ليملأوا منها وغار الأبناء من أخيهم الصغير يوسف الذي كان والده يؤثره بالحب.. فتأمروا عليه وباعوه بدورهم لأحد حكام مصر .

وظفر يوسف باحتراز الحكم عندما فسر له حلمه المشهور عن سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان. بأن سيفتح في البلاد قحط يستمر سبع سنوات.. وعينه مدبراً لخطة مقاومة القحط .

وعندما جاء للمرة الثانية - لغوثه - عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار الأسرة كلها فجاءوا وقاموا في بحدى مناطق الشرقية بالوجه

البحري، ولمضوا أجيالاً عديدة تكاثروا فيها حتى ضيق بهم المصريون فاستعبدوهم وشغلوهم في بناء المعابد (وهذا لا ينطبق على الأهرام لأنه جاء بعد الأهرام بمئات، وربما ألف العترين) حتى ظهر منهم موسى الذي قرئى في بيت فرعون ونشأ كنيل مصرى ولكنه تبنى قضية بنى إسرائيل ودخل في صراع مع فرعون وأيده الله وجعله نبياً وكتب له النصر على فرعون بحيث خر جوا من مصر "بيت العبودية" فذهبوا إلى فلسطين "ليس عبدوا" الفلسطينيين وتولالت الأجيال حتى ظهر فيهم عيسى السيد المسيح الذي أفراد هداية خراف بنى إسرائيل الضالة فلتقابلوا عليه وتوصلوا إلى محاكمة، وصلبه "وما صلبوه.. ولكن شبه لهم" .

وبعد قرابة ستة قرون من ظهور المسيحية أذن الله تعالى بظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله وهو سليم إسماعيل بن إبراهيم .

وكانت القضية تتكرر عندما أهدى المقوص للرسول مارية المصرية القبطية، وعندما أنجبت من الرسول وولدت له إبراهيم.. ولكن الله تعالى لم يشا لإبراهيم أن يعيش فمات طفلاً .

وهكذا نجد لن الديانات الثلاث نشأت عن لب واحد، وهو ما يجعلنا نفهم كلمة الرسول عن الأنبياء أنهم "أبناء علات" أبوهم واحد ولمهاتهم متى، وارتبطت تاريخياً وجغرافياً بمكان وزمان متقارب قبل أن يتفرغ كل دين ويذهب إلى قارات الأرض، وكان يفترض أن تكون العلاقة بينهم كالمعلقة ما بين الأخوة، ولكن سذلة كل دين صافوا بالدين الآخر.. وساد الجميع نوع من الفتور، إن لم يكن العداء.. وكانت العلاقة على أسوأها ما بين المسيحيين من ناحية واليهود والمسلمين من ناحية أخرى، وكانت على أخوها ما بين المسلمين من ناحية والسياسيين واليهود من ناحية أخرى، ذلك لأن الإسلام كان عليه كآخر الديان أن يحدد الموقف بالنسبة للديان التي سبقته فوضى

مبدأ القبول لكل الأديان، وحرية لصحاب كل دين في ممارسة دينهم دون أي تحديد، وتطبيقاً لهذا المبدأ ظفر المسيحيون واليهود بالحرية الدينية الكاملة .

ويغلب أن تدق الحكمة الإلهية في الطريقة التي ظهرت بها الأديان الثلاثة، والسباق الذي اخنته في حين أن إنعام النظر يمكن أن يكشف في كل حركة منها حكمة فقد شاء الله تعالى أن يظهر إبراهيم في الجناح الأيسر في المنطقة العربية. ويغرس دينه فيها، ثم لراد الله أن يسكن أحفاده في مصر ليظهر موسى ويعلن اليهودية ويقود بنى إسرائيل إلى فلسطين ليظهر فيها بعد عدة قرون المسيح ويعلن المسيحية.. وبعد عدة قرون أخرى أعلن محمد بن عبد الله - سليمان بن مساعيل الذي تبعه إلى الحجاز - الإسلام .

ولا جدال أن في إرادة الله تعالى وجود الأديان الثلاثة جنباً إلى جنب حكمة كبيرة فقد أراد لها أن تتحدد في الأرب وتختلف في الأم فتكون "أبناء علات" كما قال الرسول ليتحقق فيها عنصر من الوحدة وعنصر آخر من التمييز كما لم يشاً أن ينفرد واحد منها بالبشرية، فهذا يتعارض مع التعديدية التي هي في طبيعة المجتمع البشري، وما لا يكون هناك مفر منه، وعادة ما يفضل الأرب أن يكون لأبنه الواحد أخ يلاعنه ويكسر فيه حدة الاحتقار ويتحقق كل ما في "التجمع" من مزاجها سواء كانت في العاطفة لو في الإضافة، التي يضعها الثاني إلى الأول والثالث إلى الثاني .

فوجود أديان ثلاثة التي هي الحد الأدنى للجمع، وتصاف كل منها بمعالم مميزة يمثل تعديدية "الأسرة" التي تعرف أبناءها قواعد التعامل والأخذ والعطاء وما يكون لها وما يكون لغيرها. وأدب الاختلاف والاختلاف وإن يكمل ما لدى الواحد ما ينقص الآخر . فاليهودية بتوحيدها للصلاد، والمسيحية بمحبتها والإسلام بعدله. كلها تمثل التكامل المطلوب في عالم القيم .

إن التكيف الإسلامي لهذه الدرجة من تعدد الديانات على لسان للتداویش والتتسامح والتتكامل فهو أفضل للخيارات فهو أفضل من وجود دين

ولحد فحسب لن ينجذب مع الطبيعة البشرية، ويحرم من مزايا المعاشرة ووسائل التفريغ في وقت واحد. وهو أفضل من وجود عذر لـ الأديان الذي يؤدي إلى التفتت. وقيام العلاقات التي توجدها التعديّة على أسلف المسماحة تمثل للعطاء والتكميل وهو الوضع الأصولي لأنها كلها تنتهي إلى الله ولحد وتقادى بقيم الحب والخير والعدل وما الذي يدفع دينا منها لأن يتکافر على حساب الآخر وفي كل دين مئات المسلمين وكل دين نكهة وضرورته ولضافته إلى الحضارة لكم دينكم ولدى دين .

لن الدين هو البيت الكبير الذي يضم على الأقل وما نحن بصدده، الأديان الأخوة "اليهودية وال المسيحية والإسلام" الثلاثة، وأن يكون لكل واحد منها دور فيه يمثل قدرًا من استقلال داخل الإطار الواحد، وأن يحب كل واحد نفسه وأبناءه لا يعني بالضرورة أن يكره أخويه ولبناءهما لو إلا يخصهم بجانب من الحب لأن الحب يسع الجميع ويسعد به الجميع .

ووجود لخوة ثلاثة في البيت أفضل من لن يسائله ولحد فحسب بالبيت، لأنه وإن كان البيت سيصبح خالصاً له، فسيكون عليه مسؤولية القول ببنفقاته وأعبائه ثم يمكن أن يقع في مزلاق "المنفرد" الذي تتركه الآثرة والأثانية، ولا يوجد شر يكا يكبح جماحه ويتحمل معه الخسارة. أما للربح فلن استخدام العقل واستلهام القلب يضاعفه ويجعله أكثر مما كان يمكن للفرد وحده أن يصل إليه .

\* \* \*

### هذا عن السبب التاريخي ..

أما السبب الموضوعي للتقرير الإسلام تعديّة الأديان، فإنه يعود إلى تكييف الإسلام لفكرة "الله" باعتباره خالق الكون بأسره، والوجود كله. في حين أنه في الفلسفة كان مجرد "فرض لحل سلسلة الخلق" دون أن يتضمن

هذا الفرض بالضرورة خصائص الحياة والفعالية والمقدرة الخ.. كما أنه في الأديان الأخرى كان إليها محلها، للمصريين لو البابليين أو بني إسرائيل، بينما أفت عليه الوثنية باوضار ولوثات تصوراتها الفجة والبدائية، إن "الله" في الإسلام هو خالق الكون بأسره وجليل البشرية، ولصل القيم العليا من حكمة وقدرة وعدل وخير وسلم الخ.. ولوضع النظم التي يسير عليها الكون كما يسير عليها المجتمع البشري، وهو الذي أنزل الديانات كلها من لدن آدم حتى محمد، بما في ذلك رسل وديانات لم يقصص علينا القرآن أنباءهم. فما دام الأمر كذلك فلا يفترض أن يكون في تعددية الأديان تناقض أو تناقض لأن الله تعالى هو الذي أنزلها وأنه يرسل الرسل وينزل الديانات تبعاً لاحتاجات البشرية المتفاوتة والمتعددة حسب الأزمان والعصور والأجناس والملابسات التي تتحكم في كل جنس وشعب. وهذه الأديان كلها تؤثر، وتتأثر باوضاع مجتمعها، ولا يستشعر القرآن حرجاً أو حساسية في ذلك لأن كل شيء من خلق الله.. فلن يكن فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، وعندما مثل الرسول "لربت رقى نسترقيها ودواء نتداوي به ونقاوة نقيها هل ترد من قدر الله فقال هي من قدر الله" ولأن الله تعالى وضع لصولاً ومبادئ تحكم المجتمع. وفي الوقت الذي لا يمكن أن يغيب مثقال ذرة في هذا الكون اللامنهائي عن علم الله. فإن الإنسان ليعطي نفسه أهمية قد لا تكون له إذا تصور أن الله تعالى ليس لديه عمل إلا متابعته، فلين هو من ملك الله ..

من هنا فإن منطق الخطأ والصواب لا يمكن أن يطبق على الأديان. فكل دين يمثل إحدى احتياجات البشرية. ولاختلافها يعود إلى اختلاف الاحتياجات والملابسات والعصور والبيئات .

وليس هناك حساسية في القول بأن الأديان، وإن كانت منزلاً من الله فإنها تصبح "ظاهرة اجتماعية" عندما يتعامل الناس معها. الأمر الذي أشار إليه القرآن عندما تحدث عن غلبة الأهواء التي تحرف الكلم عن حقيقته

ولثار مر للغدة وكر العشى وتولى الفرون وكيف نفسوا القلوب عندما يطول عليها الأمد وتتجدد المشاعر والعواطف أو تقولب الخ..

يجب أذن التفريق بين ما جاء في القرآن الكريم الذي هو التعبير الحقيقي عن الإسلام. وبين ما ينتهي إليه رجال الدين في كل عصر وأوان من فهم لحقيقة الرسالات الإلهية لأن هذا الفهم لابد وأن يتاثر برسالة فكر هذه المجتمعات. وقصور الإدراك البشري وغلبة المصلحة والذاتية على نفوس الذين يتحدثون باسم الأديان ويرون أنفسهم حراسها وحفظتها وما يسلك إليهم مع احتكارهم لتمثيل الدين من انحرافات .

وهذه الظواهر توجد في كل المجتمعات ويتأثر بها رجال الدين من مسلمين أو مسيحيين أو بوذيين الخ.. وهي السر فيما يصدره رجال الدين من أحكام ينسبونها إلى الدين .

وموقف الإسلام الذي جل في القرآن الكريم واضح دون خفاء، وقد حذر القرآن مراراً وتكراراً في العديد من الآيات. أن الله تعالى أراد هذه التعديدية الدينية، بما تتضمنه من اختلافات لا مناص عنها بحكم ما أرساه الله من أسم يسير عليها المجتمع. ولما كان الاختلاف ليس فحسب ولو داء، بل هو مطلوب، فإن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيمة .

ويهذا حسم القرآن شافة الخلاف، وحرم على كل فريق أن يدعى الأفضلية وإن يرى أن الآخرين ليسوا على شيء، ولأن يدعى الجنة لنفسه والنار للمخالفين فهذا ليس من حقه، وفيه أقوال وتألي على حق الله تعالى، وإن هذا كله "أمانى" يصدر عنها كل فريق من منطلق ذاتي والأمر ليس بأمانى المسلمين أو أهل الكتاب أو غيرهم ..

وحكمة الله تعالى في هذا كله أن الأديان رغم اختلافها تنتهي كلها إلى حقيقة واحدة هي الألوهية فالاختلافات لا تناول الجوهر - كما يسود لبعض الذين يحول استغراقهم في لغفهم دون فهم الآخرين . فالملايين في أوروبا وأمريكا الذين يقولون "لربنا الذي في السماء" لا يفهمون منه إلا ما يفهمه المسلمون من حديث "الناس عباد الله" ومن المؤكد أنهم لا يفهمون ، ولا يعنون بالأقانيم الثلاثة وعلاقة كل واحد بالآخر ، لما التعميد في العيادة ، لو تناول للربان قليلاً إلا طقوس وتقالييد لا تضر ، وقد تفيد ، وفي هذه الدول التي لا تؤمن بالإسلام يعمل الناس بجد وإخلاص ولديهم الصدق في القول والإنقان في الأداء ولوفاء بالعهود والخلق الحسن ، كما يعد كذب الساسة فيما يدللون به من وقائع لو بيّنات أمام القضاء أو مؤسسات الدولة جريمة كبيرة قد لا يكفر عنها إلا بالاستقالة كما حدث بالنسبة لنكسون الذي اتهم بالتجسس على خصوصية السياسيين وللرئيس كلينتون بالنسبة لعلاقته بإحدى موظفات البيت الأبيض ، وقد تعرض لللوم والتغريم ودفع غرامة كبيرة والحرمان من ممارسة المحاماة لمدة خمس سنوات في حين أن معظم قادة الدول الإسلامية ليس لهم من الكلام إلا الكذب والتزيف وليس لهم من عمل إلا الاستبداد والتحكم ، وبهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تكون أقرب إلى الله ، وإلى المثل والقيم الإسلامية ، من عديد من المجتمعات التي تدعى الإسلام .

أنكر لني كنت في شتاء عام ١٩٤٨ في معتقل الطور مع الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا بعد الحل الأول للإخوان . وكان المعتقل الذي غرس وسط الصحراء القاحلة يبدو ليلاً متلائماً الأضواء بفضل المصايبخ الكهربائية التي أقامتها إدارة المعتقل لفرض الحراسة وبفضل ما توصل إليه الإخوان خاصة الكهربائيين منهم من استخدامات للطاقة الكهربائية في تسخين المياه للاستحمام والغسل والطهوى الخ .. وكانت أقول للإخوان إلا تظنون أن الله تعالى سيدخل "الديمن" الجنة ، بعد أن تناوح البشرية كل هذه الأنوار فيرون بقوة كلامه لم يؤمن بالله ولا الرسول " وكثيرهم تصوروا أن الإسلام ظهر في أمريكا وأن الرسول دعا أديسين والأمريكيين إلى الإسلام فرفضوا .

و كنت أرد عليهم - صدق الله ( قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشبة الأنفاق وكان الإنسان فتورا ) .

وقد آن للدعاة الإسلاميين أن يعلموا أنه ليس مطلوبًا منهم، أن يكسبوا للإسلام مؤمنين بآديان أخرى، وليس من حقهم أن يحكموا على الآخرين بالنار كان مفاتيح الجنة والنار في أيديهم. إن هذا منتهى الأفuries والتألي بل الوقاية، في حق الله تعالى. إن كل ما طلبه القرآن - بعد أن قال ( يا أيها الذين آمنوا عليكم لنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم<sup>(١)</sup> ). هو أن يكونوا "شهداء على الناس" ويقتضي هذا أن يعرفوهم على الإسلام ثم يتركوهم لأنفسهم لأن تغيير الدين ليس مسألة إيمان قلبي ونظرى فحسب، ولكنه يتطلب تعديلات اجتماعية وتربيات في الميراث وغيره، ولأن الهدایة من الله وليس من الرسول ..

ولكن يبدو أن كل هذا لم يفهم من المسلمين المعاصرین، ولم تؤثر في أحکامهم وتصوراتهم لو في اللزعة الدفينة في نفوس بعضهم، فقد قرأت عدداً خاصاً من مجلة التوحيد عن التعديلة حاول أن يطرح هذه القضية بكل إخلاص وعمق ورغبة في التوصل إلى الحقيقة، ومع هذا فإن التيار الفكري الكاسح الذي يسيطر على الفكر الدينى جعل محور المعالجة يدور حول أمرين :

الأول: هل يمكن قبول تعدد الأديان، وهلا يعني هذا خطأ البعض وصواب الآخر ..

والثاني: ما هو مصير الذين لا يؤمنون بالإسلام يوم القيمة وهل سيكون مصيرهم إلى النار<sup>(٢)</sup> ..

(١) انظر شرحها فيما سبق ..

(٢) مجلة التوحيد السنة التاسعة عشر خريف ١٤٢١ - ٢٠٠٠ طهران - قم - انظر من ١٥ - والمعدل كله عن التعديلة .

شُمْ لَا يَقْعُونَ حَنْدَ هَذَا، وَلَكُنْهُمْ يَقْطَعُونَ بِأَنْتُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْ مُخَالَفِيهِمْ  
فِي النَّارِ<sup>(١)</sup>.

وَأَى جِرَأَةٍ عَلَى اللَّهِ مِثْلُ هَذِهِ الْجِرَأَةِ وَهُلْ يَمْلُكُونَ هُمْ مَفَاتِيحَ النَّارِ لَوْ  
يَقْدِرُونَ عَلَى زِجَّ النَّاسِ فِيهَا.. وَعَلَى أَيِّ أَسَاسٍ بَنُوا هَذِهِ النَّتْيُوجَةُ الْفَاسِدَةُ وَلَمْ  
هُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنْحَدُ، وَالَّتِي تَنْبِيبُ بِسَبِيلِهِ ضَعْفٌ وَلَا تَنْدُرُ رَحْمَةً  
الْأُمَّ بِأَبْنَائِهَا إِلَّا جُزْءٌ مِنْ مَائَةِ جُزْءٍ هِيَ رَحْمَةُ اللَّهِ.. وَفِي النَّهَايَةِ قَدْ لَا يَرْجُ  
فِي النَّارِ إِلَّا بِالْمَارِدِ الْمُتَمَرِّدِ، كَمَا جَاءَ فِي أَثْرِ كَرِيمٍ. سَنَتَسِيرُ إِلَيْهِ فِي فَقْرَةِ  
قَالِيَةٍ ..

وَقَدْ عَالَجَ هَذَا الْمَوْضُوعُ مَعَالِجَةً وَانْفِيَةً فَقِيهِ لَزَهْرَى مَجْدِدِ لَمْ يَظْفَرُ  
بِالشَّهْرَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَحْقُهَا هُوَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُتَعَالِ الصَّعِيدِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي  
كِتَابِهِ "حُرْيَةُ الْفَكْرِ فِي الْإِسْلَامِ" الَّذِي ظَهَرَ فِي أَرْبِعِينَاتِ الْقَرْنِ الْعَشَرِيْنِ،  
وَسَنَعْرِضُ هَذَا لِلْفَقْرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَى طُولِهَا لِتَتَضَعَّفَ الصُّورَةُ .

فَتَحَتَّ الْعَنْوَانُ الْفَرعُونِيُّ رَأْيُ الْجَاحِظِ وَالْعَنْبَرِيِّ فِي عَذَابِ غَيْرِ الْمُعْتَدِلِ  
فِي الْحَقِّ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُتَعَالِ الصَّعِيدِيُّ ..

وَهُنَاكَ فَرِيقٌ أَخْرٌ عَلَى رَأْسِهِ الْجَاحِظُ وَالْعَنْبَرِيُّ مِنْ ثَمَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ  
يَرَى أَنَّهُ لَا يَلْتَمِمُ عَلَى الْمُجَاهِدِ مَطْلَقاً، وَإِنَّمَا الإِلَمُ عَلَى الْمَعَانِدِ فَقْطُ، وَهُوَ الَّذِي  
يَعْرُفُ الْحَقَّ وَلَا يَؤْمِنُ بِهِ عَنْدَهُ وَلَا سَكِيرَاهُ، فَلَمَجْتَهَدُ الْمُخْطَسِ عَنْدَهُ هَذَا  
الْفَرِيقُ غَيْرُ أَثْمَمِ، وَلَوْ أَدَاهُ لِجَتَهَدَهُ إِلَى الْكُفْرِ الْصَّرِيعِ، لَأَنَّ تَكْلِيفَهُ عَذَّبَهُمْ  
بِنَقْيَضِ لِجَتَهَادِهِ تَكْلِيفٌ بِمَا لَا يُطْلِقُ، وَالْتَّكْلِيفُ بِمَا لَا يُطْلِقُ مُمْتَنَعٌ شَرِعاً  
وَحُقْلَانٌ، وَقَدْ أَجَابَ الْجَمِيعُ عَنْ هَذَا بِلَنِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطْلِقُ مُمْكِنٌ غَيْرُ  
مُمْتَنَعٌ عَقْلًا وَلَا عَدْلًا، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ فِي شَيْءٍ، وَفِي هَذَا الْجَوابِ

(١) فَإِذَا قُوِلَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْجَحِيمِ لِفَتَاتِ مِنَ النَّاسِ فَلَذَا إِنَّمَا لَيْسَ لَذَا أَنْ نَعْلَمَ هَذِهِ  
الْفَتَاتَ لَوْ نَرَى عَمَّا مَعِينَنَا يَدْخُلُونَ فِيهَا ..

من الضعف ما هو ظاهر، لأن الله تعالى يقول: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}. {٢٨٦ البقرة} فهو ممتنع شرعاً وعقلاً.

ولا شك أن مذهب هذا الفريق ظاهر في نفسي الإثم مطلقاً عن المجتهد المخطئ بمقتضى دليلهم السابق، ولكن بعض المتكلمين رأى منطينا عليه أن يقيده ببعض المسائل الخلافية بين الفرق الإسلامية، مثل نفي رؤية الباري تعالى، ومثل القول بخلق القرآن، فلا يدخل فيه ما هو من الكفر الصريح، ولكن هذا خلاف مذهب هذا الفريق كما هو ظاهر.

وقد استدلل الجمود لمذهبهم بإجماع المسلمين قبل ظهور هذا الفريق على وجوب قتال الكفار مطلقاً، وعلى أنهم من أهل النار مطلقاً، وهذا من غير فرق بين معاند منهم وغير معاند، ولو كانوا غير آثمين لما ساغ قتالهم، ولما كانوا من أهل النار أيضاً.

والشق الأول من دليل الجمود مبني على مذهبهم في وجوب قتال الكفار على كفرهم، وقد ثبت في عصرنا بطلان هذا المذهب، لقوله تعالى {لا إكراه في الدين} {٢٥٦ البقرة} وكل آيات القتال في القرآن ظاهر في أن قتالنا للكفار مسبوق بقتالهم لنا، فتحن نفاثتهم على قتالهم لنا، لا على كفرهم، وقد بيّنت هذا في بعض كتبى، وبيّنه السيد محمد رشيد رضا في تفسير الآية السليقة من سورة البقرة، ولا داعسى إلى ذكره الآن هنا، وسيأتي في موضوعه من هذا الكتاب.

والشق الثاني من دليل الجمود فيه مصادره على المطلوب، لأن أصل النزاع بين الجمود وهذا الفريق في كون الكفار غير المعاندين لآثمين ومن أهل النار، أو غير آثمين ولا من أهل النار، ودعوى الإجماع في ذلك لا قيمة لها، لأن الإجماع لابد له من دليل يستند عليه، والدليل قائم عند هذا

الفريق على أن الكفار غير المعاذين غير أثمين، وهذا إلى إنكار بعضهم للإحتجاج به .

وقد ذهب الشيخ محمود شلقوت في كتابه - الإسلام عقيدة وشريعة - إلى مثل هذا، فذكر أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا ينحو ذلك لا تجري عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم بعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون كافراً عند الله يخلد في النار، وإنما معناه أنه لا تجري عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العادات، ولا يمنع مما حرم الإسلام كشرب الخمر وكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبه المسلم في ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بکفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لذلك العقائد أو لشيء منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح، واقتصر بها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه ليس أن يقنعها ويشهد بها عناداً واستكباراً، لو طمعاً في مال زائل أو جاء زائف، أو خوفاً من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه ذلك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طليساً للحق حتى أدركه الموت لثناء نظره، فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

ثم قال: ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفردة، أو لم يفهوا حاجته مع اجتهدتهم في بحثها - بمنجاة من العقاب الآخرى للكافرين، ولا يطلق عليهم اسم الكفر. والشرك الذي جاء في القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار، الذي قال الله في أصحابه (وجحدوا بها واستيقنوا لنفسهم ظلماً وعلوا) {٤١ التنمل} .

و هذا صريح في اختيار الشیخ محمود شلتوت لمذهب هذا الفريق،  
لو لا أنه خلط بين مذهب هذا الفريق ومذهب الجمهور فيما رتبه على ما  
ذهب إليه من النتيجة المقصودة، وهو أن من كلن من الكفار من أهل النظر  
و ظلم ينظر ويفكر طلباً للحق حتى لا يركه الموت لشأع نظره، فإنه لا يكون  
كافراً يتحقق الخلود في النار عند الله .

فإن هذا ليس محل الخلاف بين مذهب الجمهور ومذهب هذا الفريق  
في الكافر غير المعتد، بل هو محل اتفاق بين الجمهور وهذا الفريق، لأنهم  
هات طالبا للحق ولم يصل إلى رأي قاطع، وليس هذا هو الذي يخالف فيه  
هذا الفريق مذهب الجمهور، وإنما الذي يخالف فيه الجمهور هو من نظر  
وأجتهد فلداعم اجتهاده في حياته إلى الكفر الصريح، وهذا هو الذي لم يشر  
الشيخ محمود شلقوت إليه، مع أنه فيما نقلناه عنه يرى رأي هذا الفريق  
الذي يفرق بين الكافر المعتد وغير المعتد.

وللبحث بعد هذا كله مجال فيمن هو المعلم؟ فهل هو الذي يعرف الحق ولا يؤمن به ولو اقتصر على نفسه، فلم يحاول منع غيره من الإيمان بوسائله فهوية لو جدلية، أو الذي لا يقتصر على نفسه بل يحاول ذلك مع غيره؟ وما يفيد في هذا البحث خلاف الجمهور في لبي طالب عم النبى ﷺ فقد ذهب بعضهم إلى أنه صارت على شركه، ثم ذهب إلى أن حاصيته للنبي من المشركين تتفعه في آخراته، وتجده من عذاب النار إلى ما لا يذكر من العذاب، لأنه يصلغ في خفتة إلى بعد حد .

ولَا يفوتنى بعد هذا أن أضيف إلى نقدى المتألق للشيخ شلتوت نقداً آخر لإخفائه نسبة ذلك الرأى إلى صاحبيه الأقدمين - الجاحظ والغزيرى - وهما من أعلامنا الأقدمين، ونعيتهما <sup>إليهما</sup> تجعل له قيمة لكثير من نعيته إلى الشيخ شلتوت، وما كان هذا ليختفى عليه وهو رأى مشهور درسه وهو طالب

في كتاب مشهور من كتب علم أصول الفقه، وإن كان على عهد الطالب لم يدرك قيمة هذا الرأي في حصرنا، لما كان يحيط بنا من الجمود الديني والفكري، فمر علينا في ذلك الكتاب كما مر غيره من مسائل علم أصول الفقه، ولم يدرك مدى ما وصلت به سماحة الإسلام إلى حد لا يوجد في غيره من الأديان، ولم يدرك أن الإسلام يصل به إلى أن يكون أسمح دين لبني الإنسان \* انتهى كلام الشيخ عبد المتعال الصعيدي .

وما يمكننا إضافته - على طريقتنا في تقديم الاستشهاد بالقرآن واستخلاص الأحكام منه، إن نقول أن القرآن يتضمن العديد من الآيات التي تؤيد حرية العقيدة وتقبل الأديان وتدع الاختلاف فيها إلى الله .

**من هذه الآيات ...**

د) «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصليبيين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا ظهر لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» {٦٢ البقرة} .

د) «وقالت اليهود ليست للنصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يبتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون» . {١١٣ البقرة}

د) «قل آمنا بالله وما نزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وبِرْقَوب والأساطير وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» . {٨٤آل عمران}

د) «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة الناس أجمعين» . {١١٩ - ١١٨ هود}

□ «قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله. ويلنا ولهم لكم لعلى هدى لو في ضلال مبين. قل لا تستثون عما أجر منسا ولا نستثن عما تعلمون». {٢٤ - ٢٥ سهيل} .

□ «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبّدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولئن دين». .

{١ - ٦ الكافرون}

وتحذّث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حينما منصفاً، بمثل الحياد والنزاهة التامة مما كان يمكن أن يكون درساً في الموضوعية والأنصاف، ففي الوقت الذي ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه اعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

□ «ومن أهل الكتاب من أن تأمهده بقطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمهده بدينار لا يؤده إليك إلا ما زلت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فس الأميّن سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون». {٧٥ آل عمران}

□ «ليسوا متساوين، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله لشاء للليل وهم يسجدون ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرُون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ولو ذلك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عالم بالمتّقين». {١١٣ - ١١٥ آل عمران}

□ «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما نزل إليكم. وما نزل إليهم خاشعين الله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلاً أو لئن لهم أجر هم عند ربهم إن الله سريع الحساب». {١٩٩ آل عمران}

□ «التجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين لشروا ولتجدُن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك لأن منهم قسمين

ورهانا وأنهم لا يستكرون. وإذا سمعوا ما نزل إلينا رسول ترى  
أعينهم تقىض من الدمع مما عرفا من الحق يقولون ربنا لمنا فاكتبنا مع  
الشهادين». {٨٣ العادة}

ولستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :  
□ «وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكُمْ وَعِنْهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ». {٤٢ العادة}

ونتحدث عن الإنجيل ..

□ «.. فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمَصَدَّاقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَاةِ وَهُدًى  
وَمُوعِظَةٌ لِلْمُنْتَهَى». {٦ العادة}

□ «.. وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». {٧ العادة}

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين لولهم، أن يستترك ذلك شـ.  
ولأنها لم قد خلت لها ما كسبت «وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ». وَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ  
بِمَنْ يَضْلُلُ عَنْ سَبِيلِهِ» ...

وقال القرآن بصريح العبارة ..

□ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ لِنَفْسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَالٍ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ» <sup>(١)</sup>  
{١٠٥ العادة}

□ «أَنَّكُمْ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَلَّفْتُمْ  
يَعْمَلُونَ». {١٣٤ البقرة}

(١) لقد للتفسير معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تتسع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، وبيندو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد في عهد أبي بكر من يقع في اللبس حتى يبيها لهم (انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح للرباني) ج ١٨ ص ١٣٤ .

□ «قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا، وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا يَعْلَمُونَ». (٤٥ سورة)

□ «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْدَى».

(٣٠ لِنَجْمٍ)

□ «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّمِينَ».

(٧ لِقَمٍ)

ونحن لا نعلم على وجه القطع هل لرسول الله تعالى إلى أهل الصين والهند واليابان رسولاً لم لا، ولكننا نعلم يقيناً أن الله تعالى قال (وما كان مغضبي حتى نبعث رسولاً) (١٥ الإسراء)، ومن ثم فإن من الخطأ الحكم بأن قباع بوذا وكونفوشيوس وهم - لضعف المسلمين والمسيحيين واليهود - في النار<sup>(١)</sup>.

ولما كانت السنة مبينة للقرآن ومطبقة لتوجيهاته فإن للرسول ما ان وصل المدينة حتى وضع وثيقه وحد فيها بيسن كل من يسكن المدينة وأعتبرهم "أمة دون الناس" "ليهود دينهم وللمسلمين دينهم" وأن على اليهود نفتهم وعلى المسلمين نفتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الائم للخ..<sup>(٢)</sup>

وهناك أثر له دلالة عميقة هو ما جاء في مشكاة المصلح، مروياً عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، ولمراة تحضب (أي توقد) بقدرها ومعها لين لها فإذا لرتفع وهج تحت به فلما النبي ﷺ فقلت "أنت رسول الله؟" قال نعم قالت "بابى لنت ولمى أليس الله لرحم الرحيم" قال "بلى" قالت

(١) حقاً ابن الله تعالى قال "ولن من لمة إلا خلا فيها نذير" (٤٧ سلطان) ولم يقل رسول.. فإذا كان بوذا وكونفوشيوس يطبق عليهم وصف نذير فلنهم يكونون حجة على أقوامهم خاصة عندما تتحقق لهم التي يدعون إليها مع العقائد الإسلامية.

(٢) تاريخ السيرة النبوية لأبن هشام ص ٢٤٩ ج ٢.

"لَنِ الْأُمْ لَا تَنْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ" فَلَكِبْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْكِي ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا فَقَالَ "لَنِ اللَّهِ لَا يَعْذِبُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الْمَارِدُ الْمُتَمَرِّدُ الَّذِي يَتَمَرَّدُ عَلَى اللَّهِ وَلِبْسِهِ لَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ (١) .

فهل هناك تعدديّة دينية دون حماصيّة مثل هذه.. ولماذا لا يقبل  
المسلمون اليوم ما قبله الرسول نفسه عندما دخل المدينة، ولا يذهبون إلى ما  
ذهب إليه مما هو أقرب إلى رحمة الله؟ ..

\* \* \*

ومنذ أن كتب الرسول وثيقة المدينة، وقال ابن الأنبياء لخوة علات  
ولأن الأديان هي "البيت الكبير" الجميل لو لا ثغرة فيه، جاء الإسلام ليسدّها،  
ومنذ أن قال "تحن لولي بموسى منهم" وقد نزل حبل صری من الرسول إلى  
أفراد من المسلمين آمنوا بـ تعدديّة الأديان ولخوة الأنبياء، ولعل أبرزهم هو  
أبو عبيدة في أبياته المشهورة :

إذا لم يكن ديني إلى دينه داني فمرعي لغزالان وبيت لأوثان وللواحة تسوارة ومصحف قرآن ركابه فالحب ديني وليماني	لقد كنتُ قبل اليوم لنكر صاحبى وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ونبيز لرهبان وكعبة طائف أدين بدين الحب أني توجهت
---	---

ومن أبو عبيدة انتقل الحال إلى أنه الفرض الذي قال في تقيي  
السلوك :

فما بسأر بالإنجيل هيكلاً بيسعة كما جاء في الأخبار في ألف حجة وما قصدوا غيري وإن كان قد صدّهم	وإن نسأر بالقرآن محراباً مسجد وإن عبد للنار المجروس وما انتطفت سوائى وإن لم تكون أفعالهم بالمسديدة
--	--

(١) مشكاة المصليبح - المكتب الإسلامي - بيروت ج ٢ ص ٧٣٥ .

وظل هذا الحال كاملا حتى يبعثه بقظة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، فاعاد شوقى الفكرة في ثوب قشيب :

كتب بها، يهندى ولا تنبأ  
جمعتها الحقيقة للزهراء  
فله بالقوى إليك لنتفاء  
فإن الجمال منك حياء  
فاللوك الرموز والإيماء  
فالمراد الجلاله للشماء  
فضل تحبسو به من مقناء  
والعاصفات والأنواء  
وسبع السماء والأرض والأرحام والأمهات والأباء  
لعلك المذكروات عبيد  
جمع الخلق والفضيلة من شفاف عنده الحجاب فهو ضياء

رب شفت العبساد لزمان لا  
ذهبوا في الهوى مذاهب منتى  
فإذا لفروا على لها قويها  
ولذا أثروا جميلا بتنزيه  
ولذا لنشاؤا التمثال غرا  
ولذا قدروا الكواكب لربابا  
ولذا بعد الملوك فإن للملك  
ولذا تبعد البحار مع الأسماك  
وسبع السماء والأرض والأرحام والأمهات والأباء  
خضع والمؤنثت إماء  
كذلك ترمقني من هناك <sup>(١)</sup>

وقد لا تثير هذه الأبيات دهشة لشفافية روح الصوفي والشاعر، ولكن الذي يثير الدهشة أن يجدها بالفاظها تقريبا لدى فقيه يمثل الفقه الشيعي وهو أكبر وأشهر آيات الله فيه إلا وهو آية الله العظمى الإمام الخميني الذي روى عنه ..

على بسوابة الخان  
والمسجد والمهد والمدر  
وتفت منهرا في سجود  
كذلك ترمقني من هناك <sup>(١)</sup>.

(١) انظر عدد مجلة التوحيد (طهران - قم) الخاص بالتنديبة في الإسلام (مراجع سابق) ص ٨٧.

## الفصل الرابع

### الحكمة

**أصل مسحوقته منه من أصول الإسلام  
يأثروا بالافتتاح والتعلمية**

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يجعلوا من الحكمة أصلاً من أصول الإسلام ومصدراً من مصادر الفقه. بعد أن ذكر القرآن الكريم الحكمة مراتاً وتكراراً، وقرنها بالكتاب .

أشغل الظن أنهم عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط، يسمح بالافتتاح والتعلمية، وهي صفات يضيق بها الفقهاء عادة، لأنها تفتح عليهم باباً لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة في آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ومقرنة بالكتاب مثل :

- (ويعلمهم الكتاب والحكمة). {١٤٩ البقرة}
- (ويعلمكم الكتاب والحكمة). {١٥١ البقرة}
- (وانذروا نعمة الله عليكم، وما نزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به). {٢٣ البقرة}

□ «وَذَكِّرُنَّ مَا يَتْلُى فِي بُيُوتِكُنْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ لطِيفًا خَبِيرًا» . {٣٤ الأحزاب}

□ «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِمْ وَيَزَكُورُهُمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفْيِ ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

{٢ الجمعة}

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعى لأن يذهب إلى أن الحكمة هي السنة، لأنه ليس للأيات من تلويه إلا هذا، وهو أمر كلن يمكن قبوله لو لا أن القرآن الكريم يستخدم كلمة الحكمة في آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفي أن يكون المقصود بها السنة. فقد أتى الله داود الحكمة .

□ «وَقُتِلَ دَاوُدُ جَالِوتُ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلْكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلِمَهُ مَا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعِصْمِهِمْ بِبَعْضِ لَفْسِنَتِ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو الْفَضْلِ عَلَى الْعَالَمِينَ» . {٢٥١ البقرة}

□ «وَشَدَّدْنَا مِلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابَ» . {٢٠ من}

كما أتاهها "الحكمة" لقمان :

□ «وَلَقَدْ أَتَيْنَا لِقَمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ أَشْكُرَ اللَّهَ. وَمَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ نَفْسَهُ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» . {١٢ الفصل}

كما أتاهها عيسى :

□ «وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْقُورْآنُ وَالْإِنْجِيلُ» . {٨ آل عمران}

□ «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جَئْنَكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَبْيَنُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَانْقُوا إِلَيَّ اللَّهِ وَلَأَطْبِعَنَّكُمْ» . {٦٢ الزخرف}

بِلَّ أَتَاهَا النَّبِيِّنَ :

□ (وَإِذْ لَخَذَ اللَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِنَا مِمَّا لَتَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةً، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدِقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَتَسْرِعُنَّ إِلَيْهِ فَقَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخْذَتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِيمَانِكُمْ إِبْرَاهِيمَ قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَأَشْهِدُوكُمْ وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

{آل عمران} ٨١

كما تكلم عن الحكمة بصلة مجرد :

□ (يُؤْتَى الْحِكْمَةُ مِنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَهُدٌ لَوْتٍ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَكُرُ إِلَّا لَوْلَا الْأَلْيَابِ). {٢٦٩ البقرة}

□ (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ). {١٢٥ النحل}

□ (حِكْمَةٌ بِالْغَفَّةِ، وَمَا تَغْنِي النَّذْرُ). {٥ الفرقان}

\* \* \*

لراء هذه الآيات التي يجعل الحكمة جزءا من رسالة الرسول وشريعة الكتاب، يكون علينا أن نرد على سؤال ذي شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيه القرآن بتعبير "الحكمة"؟ والثاني هو لماذا ذكر الحكمة جنبا إلى جانب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده ..

لعل أقرب تعبير لمعنى الحكمة في القرآن هو العقل الخير والقيم العليا، والعلم الهدى الذي يستبعد الخرافية ويحول دون أن يضل المؤمنون ..

وقد يلقى بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه في آيات كثيرة بأنه "حكيم" أو "عزيز" ، وفي مواضع قليلة "خيرا".

كما قد يعنيها أن نعلم أن "الحكم" وليس هو يبعيد في الاستفهام اللغوي من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو "سياسة أمور الناس" ، وهي كلها تحتاج لول ما تحتاج إلى الفطنة وللكياسة ومعرفة طبائع الأشياء ولصول الشرعية.

واللذين التي يمسير عليها المجتمع.. وهي في إجمالها لا تخرج عن اشتراطاته من المعرفة، والعلم والخير .

يعزز هذا أيضا النصوص المتفقرة والمتعددة في القرآن عن الحكمة على التفكير وإعمال العقول والتذير فيما خلق الله ولو جده من آيات وسفن للتعرف على ثمار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون سبخ.. وأنل على هذا ما جاءت به الآية ٣٧ من سوره الرعد (و كذلك نزلناه حكماً عريباً ولئن أبجع أهواهم من بعد ما جاءك من العلم، هلاك من الله من ولد ولا ولد). فنجد هنا التجمع ما بين القرآن والحكم والعلم في سياق واحد

وَجَاءَ فِي مَقْتَلِ لَاجُونَ الدَّاهْشَرِيِّ عَنْ مَعْنَى الْحُكْمَةِ (٤) ..

إن معانى الحكمة التي حددتها الفريون والمفسرون الاصولية في القول والفعل، ومعرفة أفضليات الأشياء بأفضل الطور، لو هي العقل، والعلم والفهم، والمصلحة، والمواعظ، والفلسفة، لو المعرفة يسألكم ويفهمون، والثبوت، والفقه، لو هي بحسب الطبراني في كتابه "مجمع البيان في تفسير القرآن" العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته، وإنما قيل للعلم حكمة لأنها يمتنع بها عن القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح.

ومهما قيل لو يقال فإن الحكمة لا تخرج لهذا عن معنى المدداد  
والصواب، ووضع الشيء في موضعه قولًا وعملًا فالحكيم هو الذي يحكم

(١) انظر مقالاً للدكتور إبراهيم العلوي مدير الدرر الشفوية والبحوث - الجامعية الإسلامية (الندن) في جريدة الحياة بعنوان ما بين الحكمة والشريعة: الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. (الحياة ٢/١/٢٠٠١). .

الشيء، ويأتي به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يسعده قبل أولئك لو يمسك عنه في زمانه لو ينعرف به عن حدوده وقيوده كما يذكر محمد جواد مغنية في كتابه "التفسير الكافش".

والتعريفات التي قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف في جوهرها عما سبق ذكره، فهي عند الكندي "علم الأشياء بحقائقها يقدر طاقة الإنسان، لأن خرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق، وفي عمله للعمل بالحق" (راجع رسائل الكندي الفلسفية)، والأمر نفسه نجده عند الفارابي وابن سينا.

أما ابن رشد فلعله خير من فصل العلاقة بين الحكمـة والشريعة، وثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمـة واجبة شرعاً وعقلاً. فهو يرى لبـداء في كتابه "فصل المقال" أن الحكمـة لو لفـسفة لو تعمقـنا معـناها فهي ليست شيئاً أكثر من "النظر في الموجودـات" من حيث دلـائـتها على الصـانـع، أعني من جهة ما هي مصنـوعـات، فإن الموجودـات إنـما تـدلـ على الصـانـع بمـعرفـة صـنـعـها، وأنـه كلـما كانتـ المـعرفـة بـصـنـعـتها لمـا كانتـ المـعرفـة بالـصـانـع لـقاـمـ وهذا توجـيه واضحـ إلى أنـ غـاـيةـ الـفـلـسـفـةـ فيـ النـهـاـيـةـ الـوصـولـ إـلـىـ حـقـيقـةـ وجودـ خـالـقـ لـهـذـاـ الـكـونـ، وـلـأـدـرـىـ هـلـ تـوـجـدـ لـلـدـنـينـ عـمـومـاـ، ولـإـسـلـامـ خـصـوصـاـ، خـاـيـةـ أـجـلـ وـلـسـمـىـ مـنـ ذـلـكـ "أـهـ".

نقول إنـا وإنـ كـانـ كـانـ تـفـهـمـ تـفـسـيرـ ابنـ رـشدـ لـلـحـكـمـةـ فـلـنـاـ نـؤـثـرـ لـلـتـعـرـيفـ لـلـعـامـ - أـىـ العـقـلـ وـالـعـلـمـ وـالـفـهـمـ وـإـدـرـاكـ رـوحـ إـسـلـامـ وـمـقـاصـدـهـ وـقـيمـهـ. لـأنـ الـفـلـسـفـةـ قدـ تـشـيرـ مـعـنىـ لـصـطـلـاحـهاـ يـحـصـرـ الحـكـمـةـ فـيـ مـتـاهـاتـ عـلـمـ الـكـلامـ وـيـرـكـزـ الـاـهـتمـامـ عـلـىـ ذـلـكـ اللـهـ تـعـالـىـ - كـماـ عـنـدـ الـمـعـتـزـلـةـ - وـكـانـ أـخـرىـ بـهـمـ أـنـ يـسـتـخـدـمـواـ الـحـكـمـةـ فـيـمـاـ يـحـقـقـ الخـيـرـ لـلـمـجـمـعـ وـلـلـنـاسـ وـمـاـ يـصـلـحـ الـأـوضـاعـ الـاـقـتصـادـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـيـنـقـلـهـاـ إـلـىـ عـالـمـ الـحـيـاـةـ الـدـنـيـاـ الـذـيـ تـكـونـ مـفـيدـةـ وـفـعـالـةـ فـيـهـ، وـلـيـعـنـ إـلـىـ عـالـمـ الـغـيـبـ وـذـلـكـ اللـهـ تـعـالـىـ فـضـلـاـ عـنـ لـنـاـ نـهـيـنـاـ عـنـ تـقـصـيـهـ

وعلينا فإن اعتبار الحكمة هي الفلسفة وعكرف للفقهاء عليها أدى إلى بفساد الفلسفة، وبفساد الدين معاً.

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التي تردت في القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا في الرد على الشق الثاني من السؤال، وهو لماذا نذكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب القرآن. ولم يقتصر على الكتاب وحده؟ الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآناً أو إنجيلاً أو توراة هي بالدرجة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهدایة، ولكنها لم تتضمن تفاصيل وجزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزخر بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفي الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها لو إغفالها، فهناك الأدلة من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الأدلة والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يعيش به القلب، وهذا الفلسفة وطريقها في البحث وهناك قبل هذا كلّه، العقل الإنساني الذي يستند به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل في حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له - وحياة ذاتها في نفس كل فرد يحمل النعمة الإلهية في الإنسان، ويدفع نماذج وتجليات للحكمة التي تعزز الدين وتستكمم نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية التراهم، ولوفرة، والتعددية، وترتبط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات.

ولعل الله تعالى وهو التعليم بذلك النقوص لم يشا للمسلمين أن يوغلوا فيما ووجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تقتلبه من مقتضيات فتدبر حياتهم الدنيا بدوعي الحرص على الحياة الآخرة والله تعالى يريد التسويف وإن لا يفقد المسلمين حياتهم وجودهم الدنيوي فنص على الحكمة ب جانب الكتاب ولو رد ذلك في الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أى الحكمة) يخالف الكتاب. لأن الله

تعالى أراد بجانب الدين الديني نوعاً من الدين النبوي، بل أنه أعتبر بما تفرز إليه النقوص بحكم طبيعتها، ولم يأت الإسلام لقمع العيوب والعواطف، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها.

ونحن لا نستبعد أن ينتهي هذا المنهج إلى ما قد يجافي الحكمة نفسها، والمطلب إلى بعض ما تهوى إليه الأنفس، ولكن لا يدق على من ينبعق في الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقى شر أعظم. ونحن نرى في حياتنا اليومية أن الإغراء في العبادة وشدة الحرص على تحذب صغائر الذنوب قد لضاع على المسلمين حياتهم النبوية، وجطتهم يشقون على أنفسهم ويلزمونها بما لا يلزم، ويهدرون في سبيل ذلك ما هو أجدى. وأنه لفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعديات. هذا كله فضلاً عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لها.. إذ لابد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملًا موضوعياً علمياً، أى بالحكمة، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو اقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعرف فهمه وتفسيره فئات من الناس لو أن يتخذوا منه أدلة تحقق مأرب خاصة، واتجاهات معينة ولضائق مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا في قبضة "كهنوت" يصر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث لأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامي الإفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمة وجديدة شرقية، وغربية. فعاجروا وأسعا، وحبسو أنفسهم - والإسلام - في دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" في العصر الحديث وتدفقها من أربعة لو كان العالم ووصولها عبر المطبع والقسوات الفضائية والإستفت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدي الباحث كل كنوز العالم القديم، وكل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار

العرض للخطوط الرئيسية، أما ما يملا الحياة فهي هذه العلوم والفنون والمعارف التي تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة. وللصيغة رمز نزوة وقوة العصر الحديث. ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى في النصوص عليها مرجعاً ولصلاً من لصول الإسلام لأنها هي أداة التعدية والاتفاح والإفادة من كل معارف العالم وهي بعد، ما يحقق العزة والمنعة والقوية المسلمين .

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن لا وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبو العلم ولو في الصين"، ووجه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق الخ ..

واليوم تنقض دعوة الإحياء الإسلامي الغبار من على الحكم، وتُعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة لكتاب في الرسالة.. وتهل من كل معن الحكم. من علوم، وفلسفة، وأداب وفنون دون حرج لأنها لصل نص عليه الكتاب كمصدر للإسلام، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنساني وما لودعه الله فيه من تقوى تتوصل بها إلى الحقائق، وتصارع، وتجول في مجالات الإبداع الإلهي المعجز وتفيد منه وتنثر الحياة به، وتسعد القلوب والعقول، وتسد الحاجات - فلا تكون فاقسة مادية ونفسية - ولا احتكار للمعارف ولا محدود قائمة تحول دون الإفادة من تأثير الحضارة الإنسانية ..

## الفصل الخامس

### التعددية في مجتمع إسلامي

نعود الإشارات الكثيرة التي لوردناها عن التعددية في القرآن الكريم إلى وجود أصل رئيسى لها هو التصور الخاص للإسلام لما يكون عليه المجتمع البشرى الذى أشرنا إليه إشارة موجزة فى مقدمة هذه الرسالة، ولما كان المجتمع الإسلامي جزءاً من المجتمع البشرى - حتى وإن كان له خصائصه المميزة - فإن ما يقال على المجتمع البشرى يصدق بدرجات متقاربة على المجتمع الإسلامي .

ولما كان المجتمع يضم مليين الأفراد وألاف الهيئات فلابد من وجود التعددية بحكم الأمر الواقع من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى لا يمكن لأى هيئة أن تستوعب الحقيقة. فالحقيقة أكبر اتساعاً، وأكثـر عمـقاً وأشد تعقيداً وعميقاً من مدارك فرد واحد لو هيئة واحدة. فالقصور البشرى يحول دون ذلك، وغلبة الذاتية على الفرد الواحد أو النظرة الواحدة تجعلها لا ترى إلا بعـدا واحدـاً من أبعـادـ الـحـقـيقـةـ وـتـؤـثـرـ عـلـىـ أحـكـامـهاـ،ـ وـتـجـعـلـهاـ بـعـيـدةـ عـنـ المـوـضـوـعـيةـ.ـ وـيمـكـنـ بـالـطـبـيعـ لـفـردـ لوـ هـيـئةـ لـنـ تـمـسـكـ بـشـعـبـةـ مـنـ الـحـقـيقـةـ،ـ أـمـاـ آـنـهـ،ـ أوـ لـنـهاـ تـسـطـعـ الإـحـاطـةـ بـالـحـقـيقـةـ فـهـذـاـ مـاـ لـاـ يـمـكـنـ.ـ وـمـاـ يـعـنـىـ لـمـ يـعـدـ لـلـآـخـرـينـ فـكـرـ لـوـ رـأـىـ لـوـ مـجـالـ،ـ وـهـوـ اـخـتـرـ الـمـجـمـعـ يـنـاقـضـ الـطـبـائعـ

الاجتماعية ولا يعني - في النهاية - إلا فرض ديمقراطية خشوية تقوم على  
الظلم وتنتهي بالفشل .

ومن الطبيعي أن تستتبع هذه التعديات وجود الاختلاف وفيه لا  
على أساس أنه ضرورة سلطة ولكن على أساس أنه جزء لا يتجزأ من بيئة  
وكيان المجتمع، لا يمكن أن يقوم بدونه. ولما كانت تلك النقطة قد تبدو  
جديدة على الكثيرين فمن تتفقوا ثقافة إسلامية تقليدية واحدية، وقد رأينا ان  
نبسط القول فيها في النبذة التالية .

### قضية الاختلاف والاختلاف في المجتمع الإسلامي :

الاختلاف والاختلاف هما قوام كل مجتمع، بما فسّر ذلك المجتمع  
الإسلامي.. فالمجتمع كالنسيج الذي يكتسب تماسكه وقوته من تلاقي للحمة  
بالسدى. ومن تقابل الخطوط العرضية بالخطوط للطولية. والحقيقة أن  
الاختلاف والاختلاف لا يقتصر على المجتمع، فهما موجودان في الكون كما  
أنهما موجودان في الفرد، وداخل كل واحد مما تدور معارك وتحدث حروب  
لا يراها أحد ولا يحس بها صاحبها ما بين كرات الدم البيضاء والميكروب  
الذى يغزو الجسم ويصيبه بالأمراض، وهناك عمليات تتم فى جزء من ثلاثة  
خالية فى الدقة والتعدد الكيميائى والكهربائى لتحويل الهواء إلى دماء وفرز  
الطعام وهضم ما يريد الجسم وطرد الزائد عنه الخ.. فالفرد الإنساني كائن  
معقد، متعدد وإن كان هذا يتم فى إطار الكيان الفردى للفرد ولو عدلت  
الخلايا التى تعمل داخله كما لو كانت جنوداً لأشبهت جيشاً جراراً يضم  
الملايين .

فإذا كان هو شأن الفرد، فإن هذا الفرد ما لايُرى لمرة حتى  
تضخم المسؤوليات، وتعدد الاختلافات والاختلافات ما يبسّر شخصه،  
وشخص زوجته، فإذا جاء الأبناء أضيف عامل جديد... وهذا كلّه بالنسبة

لأصغر دلالة من دوائر المجتمع وهي الأسرة.. ولأننا أن نتصور حجم الاختلافات والاختلافات في الوطن الذي يضم ملايين العائلات والأسر ..

من هنا فإن التسليم بالاختلاف والاختلاف في المجتمع، والاسترام بأدبه هو الضمان لأن لا يتحول الاختلاف الذى هو جوهر التعددية إلى خلاف هو جوهر الأحادية.. فالاختلاف يحتمل للرأى الآخر.. ولكن الخلاف يضيق بالرأى الآخر، وبالتالي يهدى المخالف والطرق لمام التعددية لينتهي إلى سيادة الرأى الواحد.. ونعتقد أن هذا من أكبر المخاطر التي تتعرض لها التعددية في المجتمعات الإسلامية لأنها عادة حديثة عهد بالحرارة.. والكثير منها يؤمن بالإسلام تقولا واحداً وأن الحق هو ما يراه هو، والأخر نوع من الضلال.. فإذا لم يتزعم الجميع بأدبه الاختلاف ويؤمنوا أن الاختلاف في الفكر لا يثير حفيظة ولا يقتضي عدلة بل إنه أمر مطلوب لأن الحقيقة أعظم من أن يستوعبها رأى واحد. وأن كان كل واحد يمكن أن يمسك بشعبه منها، وأن هذا لا يثير عدلة، ولا يبعث على التنديد بآخرين، وأن الفكر والمجتمع هو غير الحساب والرياضية لا يعني الاختلاف فيه الخطأ والصواب بالمعنى الرياضي، وإنما هو النظر إلى بعد من أبعاد الحقيقة لم ينظر إليه الطرف الآخر لو التركيز على جانب لم يعطه الفريق الآخر حقه، وهذا لا يعني أن يتضارب فريق مع الآخر لو يتناقض معه ولكنه يكمله .

إن الذين يرون - كالمودودي - إن المجتمع الإسلامي الأمثل هو المجتمع الذي لا يوجد فيه إلا إمام واحد. وفكرة واحد وحزب واحد يقودون اتباعهم إلى نفق مظلم، ويؤخذون بفكر نظري ينافق طبيعة الأشياء ولو قدر لهم الانتصار لجروا على بلادهم أعظم الجنسيات، وهم يحسّبون أنهم يحسنون صنعا .

وهؤلاء لا يختلفون في شيء عن جماعة أخرى تقوم مجتمعاً أحدياً لأن حدثاً الله أعلم به يقطع بأن فرقة واحدة هي الناجية من الفرق السبعين التي ستخلف عليها الأمة ...

وما على هذا تبني النظم وتوسيع الأحكام ..

\* \* \*

ويعطى ما جاء في القرآن الكريم تحت مادة "الاختلاف" دلالات ثمينة تناقض الانطباع السائد، لأنها ترى أن الاختلاف ظاهرة طبيعية يقوم عليها الكون والمجتمع والفرد. فليس من السنين إلا نتيجة لاختلاف الليل عن النهار ورأى القرآن في هذا الاختلاف نية تثير الفكر (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الآيات). وهو معنى مكرر في عديد من الآيات كما تتميز العناصر والشعوب (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف أقوافكم وألوانكم). ورأى في اختلاف الألسن جمالا في الطبيعة، والثمرات والجبال، وجعل للناس شعورا وقبائل لتعارفوا.

ورأى القرآن الكريم أن الاختلاف في المجتمع هو لسر لا مذلة عنه، وأن الاتفاق أمر مستبعد، أن لم يكن مستحيلا، وأن محاولة فوض رأى معين على الآخرين يثير العناد ويدفع للتمسك بالرأي الآخر ويصعب العلاقة بضم العداوة.. ولهذا فإنه أحال البت في هذا الاختلاف إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيمة. وهو ما يغنى الفرقاء عن الصراع والكفاح والعمل بكل وسيلة لحمل الآخرين على التسليم لهم .

وكان هذا هو الحل الأمثل فما دام الاختلاف قائما وما دام المطلوب هو أن لا يثير هذا الاختلاف العداوة والبغضاء والتزاع والخصام، فلا مفر من ليكال الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيمة .

ومراجعة مادة "الختلفوا" في القرآن تووضح ذلك كما يلى ..

□ (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) . (٥٥ آل عمران)

□ (إلى الله مرجعكم جميعاً فبسنك بما كنتم فيه تختلفون) .

(٨ العدة)

- «ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبَّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» . {١٦٤ (الأنعام)}
- «اللَّهُ يَحْكُم بَيْنَكُم بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» . {٦٩ (الحج)}
- «قَالَ قَدْ جَنَّكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَبْيَغُ لَكُمْ بَعْضُ الْذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» . {٦٣ (الزخرف)}
- «فَاللَّهُ يَحْكُم بَيْنَهُم بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {١١٢ (البقرة)}
- «وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَيِّقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِتَقْضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {١٩ (يونس)}
- «إِنَّ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {٩٣ (يونس)}
- «لَيَسْ بِهِمْ لِهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. ..» . {٣٩ (النحل)}
- «وَإِنَّ رَبَّكَ لِيَحْكُم بَيْنَهُم بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {١٤٤ (النحل)}
- «وَمَمَّا اخْتَلَفُتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَيْ اللَّهِ ذَلِكُمْ رَبِّي عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَإِلَيْهِ لَتِيبٌ» . {١٠ (الشورى)}
- «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {٢٥ (المسددة)}
- «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُم بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. ..» . {٣ (آل عمران)}
- «لَنْ تَحْكُم بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . {٦٤ (آل عمران)}

وشدة لفظه هامة أشد *إليها القرآن* أكثر من مرة بالتنمية للاختلاف، تلك هي لأن **هيمنة البغي** هي التي تجعل الاختلاف لمرا سينا ..

وَمَا لَخْلُفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ لَوْنُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ يَهْدِيُ  
هُمْ  
{تَبَرُّهُ ٢١٣}

وَمَا لَخْلَفَ الَّذِينَ لَوْنُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَنْ يَعْدُ مَا جَاءَهُمْ فَالظَّلَمُ يَعْلَمُ بِهِمْ {١٩} .

وأقرب المعانى إلى ما أراده القرآن الكريم بـ"يغشا يبيهم" هو  
السلطة التي هي بطبعها مفسدة ويغلب دلائلاً ان تغرس بذرة البغي،  
ويبدون هذا لا يحتمم الاختلاف لو يتحول إلى عدلوة، ولذلك يخ لصيامى  
في المجتمع الإسلامي شاهد على هذا. فاقضية الإمام على كرم الله وجهه  
على ليلى يكر لو عمر كان يمكن أن تكون اجتناباً فظرياً صليباً، لو  
خاطئنا، ولكن عندما أصبح له مضامون عمومي وسلطوي تسبب في  
تشقاق الأمة، كما أن فكرة خلق القرآن كان يمكن أن تعد جذقة فاسدة  
لو تزف فكري. ولكن عندما آمن بها الحاكم واتخذها مذهبًا مقررًا في  
الدولة التي ياضطهد المخالفين وجلد الإمام الجليل لحمد بن حنبل .

فإذا كان القرآن قد أقر الاختلاف، ووكل الفصل فيه إلى الله تعالى يوم القيمة، فإن السنة أيضاً أقرت الاختلاف عندما أرتأى الرسول أن للمجتهد العصيّب حسنةَيْن (لو أجرين)، وللمخطاً حسنةً (لو أجر) فلذلك المجتهد الذي يخطئه التوفيق، فإذا كانت حسنة التوفيق قد لخطئه، فإن حسنة الاجتهاد لم تفته. وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاعتراف بالاعتراضة ويحررها الفكر لأنّه يجوز بطلان الإقرار إلى درجة التشريع. كما أنّ الرسول أقر الاختلاف في جانب هام له قد لسته الخاصة وهو هراءات القرآن. فقد صب على بعض قبائل العرب النطاق بلغة قريش في بعض الآيات وتطقوها بطرق مختلفة فاجاز الرسول لهم ذلك ما دلم التغيير مقصوراً على طرقية النطاق بالكلمة دون مساس بمعناها، وأن النطاق هو قضى على هذه الاختلافات الأئمية، وكان هذا هو الأصل في تعدد القراءات القرآنية.

وعلم جيداً أن الصحابة كانوا يختلفون في فتاويهم، وأن هذا لم يؤثر أبداً على مشاعر المودة والتقدير المتبادلة. وورث التابعون هذه الصفة عن الصحابة، كما ورثوا تابعوا التابعين.. ولم يثر الاختلاف عداوة إلا عندما ارتبط - فيما بعد - بالسلطة.

ولم يوجد الصحابة والتابعون حرجاً في اختلافهم، وكانت وسائل التقدير والحب تربط بين الذين جمعهم وقت واحد مثل مالك والشافعى والبيت ومحمد بن الحسن الخ.. وكان بعضهم يأخذ فى - بعض المناسبات - ببعض ما ذهب إليه الآخرون وكانوا جميعاً ينهون الناس عن أن يقلدوهم ويأمرونهما بأتعام النظر والتدبر.

وقال للقاسم بن محمد - أحد ثمة المدينة السبعة - "لقد نفع الله بالاختلاف أصحاب محمد" في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى الله في سعة" وقال عمر بن عبد العزيز "ما يسرني أن أصحاب محمد" لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فمخالفهم ضال، وإذا اختلفوا فأخذ رجل يقول هذا ورجل يقول هذا كان في الأمر سعة".

وقد حفظ لنا التاريخ لمثالاً للاختلاف ما بين الأئمة، ونماذج ريفدهم مثل :

١. الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .
٢. الرد على أبي حنيفة لأبي بكر بن أبي شيبة ضمن كتابه المصنف .
٣. الرد على محمد بن الحسن الشيباني للإمام الشافعى .
٤. بيان خطأ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى في تاريخه لأبي محمد بن أبي حاتم الرازى .

٥. كشف الأوهام التي في كتاب "المدخل إلى الصحيح" الذي صنفه  
الحاكم الترمذى لعبد الغنى الأزدى .

٦. بيان الوهم والإبهام والتعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الشيبانى  
لأبن القطان .

٧. إصلاح خلط أبى عبيد فى غريب الحديث لأبن قتيبة الدبلورى .

٨. ما دار بين الثبىث بن معد إلى مالك بن نصر من مكالبات تكشف عن  
الأدب الجم والتقدير المتبادل .

وهذا قليل من كثير ..

ومعروف أن الإمام مالك بن نصر رفض أن يكون كتاب "الموطا" هو  
المرجع الوحيد في الأحكام عندما أراد ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور. كما  
أنه (أى الخليفة المنصور) رفض ما اقترحه ابن المقعد في رسالة الصحابة  
تفعين الفقه أو الأخذ بإحدى وجهات النظر الفقهية. وقد حلول عصر بن عبد  
العزيز شيئاً من هذا من قبل، وكان ذلك في أصل فكره عن تدوين السنن،  
ولكن الطبيعة التعديدية المتقدمة للمجتمع الإسلامي حقبة التحضر والفتوا  
والثقة في النفس كانت تقوى من أن تنتسب لمفهود الضوابط، وظل  
الاجتهاد سارياً حتى أدى إلى نوع من البلاطلة في الأحكام في البلد الواحد. في  
الوقت الواحد. وكان المفترض أن يوجد نوع من التنظيم وإطار من  
الضوابط - لأن الضوابط مما لا مناص عنها في أي عمل اجتماعي - ولكن  
فتور المجتمع الإسلامي وقتئذ استعانت على ذلك، وكان الحل المؤسف فيما  
بعد هو إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار على المذاهب التي ثبتت رسميتها،  
ويلاحظ أنه حتى في هذه الحالة فإن التحديد لم يأخذ شكل الواحديه ولكن  
بالإضافة إلى المذاهب الأربع، فإنه ضم المذاهب الأخرى كالاثني عشر ريا

في ليران والزبيدة في اليمن والباضية التي يؤمن بها البعض في عمان.  
كما أن مذهب الطبرى ودلواد الظاهري (ومعه ابن حزم) أى الظاهرة .

\* \* \*

بالإضافة إلى هذه الضرورية الأصولية لاختلاف في المجتمع، فقد  
كان هناك عاملان أدوا إلى التعددية في مجتمع إسلامي هما هداية الأنبياء،  
وغرابة الشياطين ..

#### أ. هداية الأنبياء :

إنه لمن الطبيعي في مجتمع يؤمن بدين ما، أن يكون الدين هو أكبر  
عامل فيه. فهداية الأنبياء هي محور هذا المجتمع. وهذه الهدامة لا  
تأخذ شكل الواحدية في المجتمع، ولكن التعددية، كما ثبّتنا ذلك في  
الفصول السابقة عن إشارات القرآن إلى التعددية وعن قبوله للتعددية  
الأنسان، وأن داخل إطار المجتمع الإسلامي تتعدد الاجتهادات  
وتنبّئ الأراء وتظهر المذاهب، وإن كانت هذه التعددية تلوي في  
النهاية إلى إطار صحيح وإلى أصل مكين هو الإسلام ونحن في خنى  
عن أن نكرره هنا، لأن المقصود هو الإشارة إليه، كعامل بارز من  
عوامل التعددية لما شرحه وتبّئنه والبرهنة عليه فهذا مما تضمنته  
الفصول السابقة .

#### ب. غرابة الشياطين ..

العامل الثاني الذي يؤدي إلى تعددية تختلف عن التعددية السابقة في  
إنها قد تسط حتى تجاوز إطار المعتدلة الإسلامي هو غرابة شيطان  
فقد خلق الله تعالى الإنسان من "طين" ليتلاءم مع تربة الأرض التي  
سيعيش عليها وضروراتها المازمة ونفث فيه من روحه ليمكنه - إذا أراد -

من السمو إلى سماوات القيم ووجهه غلا يميز به ما بين الخطأ والصواب وقطبا يهديه إلى الخير دون الشر. ولكن الله تعالى التعليم بالإنسان وما توسوس به نفسه - رأى أن هذا كلّه لا يعصم الإنسان من الانحراف لو ليثار فهو والذلة والمتعة على العمل والقصد والاعتدال. دعم الإنسان بهدية الأنبياء الذين عرّفوه المعرفة الحقة - على الله تعالى، وعلى ما يحدث للإنسان بعد الموت وهو ما يعجز العقل عن الوصول إليه ..

وافتضلت لراده الله وحكمته البالغة أن يكون بذلك مهك للإيمان، ولمدى عمقه لو سطحنته في نفوس الناس، فمن أسهل الأشياء الإدعاء لو النظاهر. ولذلك جعل الله تعالى "العمل" مصداقاً للإيمان فـالإيمان دون عمل يظل إدعاء حتى يثبته - لو ينفيه - العمل ..

ولكن هذا العمل يحتاج بدوره إلى مهك يكفل دولمه ويثبت صموده أمام الشهوات وما تهوى الأنفس .

أن الملائكة لا تتعرض للإغراء، ولهم هؤلاء الملائكة لاشك فيه، كما أن عملهم هو التسبيح والتمهيل وكان يمكن أن يكونوا أفضل من البشر، ولكن الله تعالى لراد للمجتمع البشري أن يكون شيئاً آخر غير مجتمع الملائكة، لراد له أن يتعرض للإغراء - كأقوى ما يمكن الإغراء - ثم ينتصر على هذا الإغراء بفضل الإيمان وبهذا الانتصار فضل البشر على الملائكة الذين لا يتعرضون لأى إغراء ..

وقد أشار القرآن إلى هذه القوة الفعالة في المجتمع البشري بما فيه المجتمع الإسلامي" في عديد من الآيات بصورة صريحة، وجازمة ووصلت إلى الدرجة التي يمكن أن يقال فيها إن الله تعالى أعطى الشيطان كلّه بلانش" كما يقولون لو حتى أمره بها، وزاد له من السلطة ليقوم بدوره في غولية الإنسان وإن هذه السلطة التي تضم المجالات العديدة التي ذكرها

للفرقان مستيقى وستنتمر إلى يوم الساعة، وكان القرآن يريد أن يقول إنها حنسر دائم وباقي، ولا يمكن المجتمع البشري أن يتحرر منه إلى يوم الساعة ولهذا مثلاً ..

- «ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا ليلوس لم يكن من الصالحين». {١١ الأعراف}
- «قال ما منعك إلا تنسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقه من طين». {١٢ الأعراف}
- «قال فما هي طين فما يكون لك أن تتکرر فيها فاخرج إبك من الصاغرين». {١٣ الأعراف}
- «قال انظرني إلى يوم يبعثون». {١٤ الأعراف}
- «قال إبك من المنظرين». {١٥ الأعراف}
- «قال فيما أخويتني لا تقدمن لهم صراطك المستقيم». {١٦ الأعراف}
- «ثم لأنفسهم من بين أيديهم ومن خلقهم وعن آيمائهم وعن شمائتهم ولا تجد لكثربن شاكرين». {١٧ الأعراف}
- «قال لخرج منها مذوماً مدحوراً ومن تبعك منهم لاملان جهنم منكم أجمعين». {١٨ الأعراف}
- «ولاذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا ليلوس قال المسجد لمن خلقت طينا». {٦١ الإسراء}
- «قال لوليتك هذا الذي كرمت على لدن آخرتن إلى يوم القيمة لا تختكن ذريته إلا قليلاً». {٦٢ الإسراء}
- «قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جز لكم جزاءً موفوراً». {٦٣ الإسراء}

□ «وَاسْتَفِرْزَ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَلَجَابَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ  
وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمْ شَيْطَانٌ إِلَّا غُرُورًا» .

{٦٤ الإسراء}

□ «إِنَّ عَبْدِي لَيْسَ لِكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرِبِّكَ وَكَبِيلًا» . {٦٥ الإسراء}

لقد كانت قضية "الشر" وجوده في المجتمع من المسائل التي شغلت الفكر الديني من أقدم العصور حتى لقد قامت أقوالاً عظيمة على أساس وجود الله تعالى  
بِهِ الْخَيْرُ، وَبِهِ الشَّرُّ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلنُّورِ، وَلَخَرَ الظُّلْمُ، وهذا أكبر دليل على  
قصور الفهم البشري عندما يتصدى لقضية الألوهية فهو يجعلها نوعاً من  
السباق بين قوتين لن يسفر بالطبع إلا عن صراع. ففي حين أن الفرض الذي  
قدمه الإسلام هو الحل الأمثل فقد أبرز الشيطان - ما بين الحقيقة المادية  
والماضي النظري - كرمز للشَّرِّ الذي يتأتى بالدرجة الأولى من الاستعلاء  
والاثرة والأنانية وغلبة الذات عندما رفض السجود لأَدَمَ بحجة أنه خير منه  
(خلقني من نار وخلقته من طين) وإن هذه الطبيعة فيه قد تغطى بالإغراء  
أَدَمَ، ومن ثم فإن الله تعالى ترك له هذه المهمة التي خلق لها لو التي  
اختارها، ولم يخش على المؤمنين لأن هداية الآباء تحصنهم من هذه  
الغوية، وفي الوقت نفسه فإن هذه الغوية، وما استأخذه من صور  
وممارسات تثير في نفوس الصادقين قوة المقاومة فيزدلاوا ليمانا، أما من هم  
دونهم فامامهم درجات عديدة من الملوك التي يخاطبون فيها عملاً حسناً  
يعمل معين ، وقد لا تغوثهم التوجيه بعد الندم، فإذا انتسبوا انتماً أو حتى  
تمادوا فإنهم يكونون مثلاً مروعاً يردع المؤمنين من أن يتردوا فيه. ولم يكن  
هذا مناص من هذا كلها. لأن الشَّرَّ على سُوانِهِ كُلِّنَ لازماً لكي تبرز  
خصيصة الخير، فبمضادها تتبيّن الأشياء كما فطن إلى ذلك الشاعر، ومن هنا  
كان لا بد من وجود الشيطان، ولا بد من أن يقوم بدوره فرجيم، مَا دام الله  
تعالى قد أراد للحياة الإنسانية أن تكون دار لقتلاء ولختيل وان يقوم المجتمع

على أساس الحرية والاختيار، ولهذا يكون أقل نقاط من مجتمع الملائكة. الأمر الذي جعل الملائكة تعجز عن فهم حكمة استخلاف الله لهذا المخلوق، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمون .

ولو صحت تيات عديدة أن لا أحد يفلت من غواية الشيطان حتى الأنبياء لذاتهم، بل لقد بدلت الحياة الدنيا نتيجة لغواية الشيطان الأولى لأنم ثم توصلت هذه الغواية مع ظهور الأنبياء فقال: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبئ إلا إذا تمعن في الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله بياته والله عليم حكيم) {٦١ الحج} ..

وتحدث القرآن عن لخطاء الأنبياء في غير ما كلفوا بتبليله فقال عن آدم (فسمى ولم تجد له عزما) وعن سليمان (ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا) وقال عن يوسف (ولقد همت به وهم بها نولا ان رأى برهان ربه) وروى عن موسى (قتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتاك فتونا) وقال عن ذي اللون (وذا اللون إذ ذهب مغضبا لريه فظن ان لن نقدر عليه) وقال عن محمد ﷺ (وووضعنا عذرك وزرك الذي انقض ظهرك) (وان كانوا كادوا ليقتلونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذنوك خليلاً ولو لا أن شبتاك لقد كدت ترکن إليهم شيئاً قليلاً إن لانتفاك ضعف الحياة وضعف العمات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) {١٠ - ٧٤ الإسراء} ..

ولم ينف الأنبياء لذاتهم ذلك فكلهم مثل يوسف (وإلا تصرف عذى كيدهن لصب إليهن ولكن من للجاهلين) فالأنبياء جميعاً محفوفون برعاية الله وهذه الرعاية يجعلهم ينتصرون على الشياطين، ولكنهم يدوفنها يصبحون كافية للبشر. وقد قال النبي ﷺ إن الشيطان يسرى من الإنسان معرى النم، وقال إن لكل واحد شيطان فلما سأله "حتى أنت يا رسول الله" أجاب

(١) لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات. لكن ظاهر الكلمات والبيان يأبها. وليس الأنبياء بعد معصومين لولا رحمة الله لهم وفضله عليهم .

باليحاب ولكن الله تعالى نصره عليه - فلا يتصور ، والأمر هكذا لأن يخوض مجتمع بشرى - إسلامي لو غير إسلامي من غولية الشيطان لاته في النهاية مجتمع بشرى وليس مجتمع ملائكة <sup>(١)</sup>

بل لو أخذنا بالقياس فإن أعظم ما يفترض أن يقوم به الشياطين يكون في مجتمع إسلامي ، لأن مهمة الشياطين هي فتن المؤمنين .

ولبرزت الآيات المجالات التي يمكن للشيطان أن يؤتى الإنسان منها وهي المال، والنساء، بالإضافة إلى السلطة التي تعود بذرتها إلى الأنانية والكبرياء، والاستعلاء، والازهو، وحب السيطرة الذي يتجلّى عادة في مجال الحكم، ويفسده .

وطبقاً لهذا لا يكون مستغرباً أن تظهر صور عديدة لممارسات خضرت للشيطان في مختلف الحالات. فيظهر الاستبداد في السياسة، والتفارق في الثروات ما بين الذين يتظرون جوعاً والذين ينتخون ثراءً، ويلوث النفاق والكذب الأفول والأفعال وتظهر "الكلاميات للعاريات" ليس فحصي على الشواطئ، ولكن في شوارع المدينة، وتنشر نور السينما، والمسارح، والعلاهي، وتزوج الصحافة الصفراء، وروابط الجنس والغرام الخ ..

ولا يتصور مجتمع بشرى لم يملأ فيه الشيطان مهمته في هذه المجالات، ونرى شواهد لها في كل المجتمعات، والفرق بين المجتمع

(١) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان في اليوم الآخر، فهو في نفسه للنفس وإنشاعه التكررت إنما كان يعمل برحمة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشاً عندما رفض إلطاحة الأمر بالسعود، ولكنه ما كان يمكن أن يغضي الله حارقاً إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما نصح دائماً بتحميه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذي لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعلمانا إشارة عندما علّمه من نار، وعندما ما يختلف به في النهاية في النار ليس بحسب .. من النار بدأ، ولدى النار يعود ..

الإسلامى وبقية المجتمعات البشرية أن للمجتمع الإسلامي لديه من القوى الإيمانية والخيرية ما يحد من مدى فجور وانتشار هذه المويقات وأن يتصدى بدرجات متفاوتة لمام هذه المهالك والمغريات .

وكان من ذكاء الشيطان أن أخفى عن المسلمين القدامي والمحدثين أهمية ونزلة الحكم، والآثار المدوية لإفصاحه بحيث لم تكن محل ملاحظة وتعقب للمصلحين،قدر ما ضخم من أهمية نثار الافتتان بالمرأة، وضرورة العمل بكل الطرق للحيلولة ما بين المجتمع الإسلامي وهذا البلاء المستطير .

وكان هذا الموقف هو الذي سمح لمعاوية بأن يحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، مع حرص المجتمع على الوقف من المرأة موقفا ظن أنه للموقف الإسلامي وكان هذا دليلا لا يدع مجالا على غفلة المجتمع الإسلامي وتخلف تقديره، واختلال المواتير في وقت مبكر جدا، ولأسباب عديدة لا يتسع المجال لقصصيلها، ليقضى الله أمرا كان مفعولا وتحقق نبوءة الرسول عن تحلل عرى الإسلام عروة عروة تقاولها الحكم وأخرها الصلاة

ونحن لا ندين الأسلاف فقد كان هناك لسباب عديدة أدت إلى هذا الموقف ولكن ما نرى أنه يستحق الللوم هو موقف الفقهاء المعاصرين الذين كان عليهم أن يروا ما دق على أسلافهم، لو أن يتحررروا من قوى الرواسب التي تحكمت في الأسلاف .

فما قيمة الضرر الذي تحدثه لمرأة ترقص وهي ترتدي زيا يكشف أكثر مما يحجب أمام قرارات حاكم مطلق يذل ويتحكم في معارضيه. على الأقل إن إساءة المرأة لن تتحقق إلا بأفراد جاعوا بمحض إرادتهم، بل دفعوا أجرا للدخول لكي يشاهدو هذه المنكرات ..

وما قيمة مسرح أو مرقص يصبح رواده ويرقصون أو يشاهدون أفلاما جنسية لزاء وضع يقضي باستغلال العمل وتشغيلهم ساعات طويلة

نترك صحتهم لقاء أجور هزيلة لا تفي بحاجة الأنوار الجائعة، لو يستخدم وسائل الاحتكار والغش لمضايقة أرباحه.

إن مجرد وجود المشاهد التي تثير الأغراء يختلف عن الوجوب الذي يتضمنه أي قرار سياسي فوجود مشاهد الفتنة والأغراء لا يقوى وحده على جذب المشاهد، لأن عدداً كبيراً من العوامل قد يحول دون ذلك من صلابة، لو مشغولية، لو خوف الخ.. ولكن قراراً سياسياً يصدره الحاكم يطبق فوراً وعلى جميع من ينطبق عليهم هذا القرار، حتى لو كانوا كل المواطنين، وقد يجعل الأغذية أكثر غنى، والقراء أكثر تقدراً وقد يشن الحريات ويفرض الخوف والرعب والإرهاب على الناس ويمتنن الكرامات ويقهر النقوص، كما يحدث في معظم نظم الحكم في الدول الإسلامية قديماً وحديثاً.

إن الرسول عندما رأى أعراباً في أسمال "أحمر" وجهه كائناً فقيئاً في وجهه حب الرمان\* لأن مشاهدة هذه الأسمال تثير الخجل، ولسم يمتد الرضا إلا بعد أن خطب وأنهالت عليهم الملابس من كل حدب وصوب ولكن المسلمين المحدثين لا يستشعرون خجلاً أمام مظاهر الفاقة المدقعة.. وإنما يحسونه أمام امرأة عارية ..

وهكذا فإن غواية الشياطين لا بد وأن توجد في المجتمع الإسلامي صوراً من التعديات والممارسات المخالفة والذانية عن لدب الإسلام سواء كان في شهوات الجنس أو دعوات التزاء والاسترادة من المال. لو للنظم التي تسخر للجماهير لخدمة الحاكم وتفرض حكم القوة.. ويفترض لن يكون لدى المسلم الكياسة والفتنة للتمييز بينها على أساس خطورتها على المجتمع ولثراها الوبيلة وأن يمنع الأولوية لكل ما يمس الحكم، ويتوه ذلك ممارسات الإثراء والتكتثر وأخيراً فتنة المرأة والجنس، وله بالطبع حق مقولتها جمعاً بكل الطرق، لو التحسن من الواقع في شراكها وقد يجد فيها ما يستثير فيه التمسك بدعونه والحرص عليها.. وعليه في الحالات التي يعجز فيها عن

ضيّط نفسه ويُنْعَلِب عليه الضعف. لِمَ يُسْتَرِك هَذَا بِالتَّوْسِةِ وَالْاسْتَغْفَارِ  
وَالْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ الَّتِي تُجَبُ الْمُبَيَّنَاتُ .

وهذا الأسلوب يختلف جذرياً عن أسلوب لفقيهاء في سد باب التزية  
ومحاولة حماية الفرد للمسلم في "صوياً" تبعده عن المغريات، وقد عالجنا  
ذلك النقطة في كتابات عديدة ولوضحنا أفضلية الأسلوب القرآني وحيويته  
وفعاليته على أسلوب سد التزية ..

\* \* \*

وقد يقول قائل ما هي الحكمة التي أرادها الله تعالى من هذه  
"التمثيلية" فنقول هل هناك لروع وأعظم من ليجاد هذا المجتمع الإنساني  
العظيم الذي يضم المليارات كل واحد له شخصيته المنفردة، وله اهتماماته  
الخاصة، وكل هذه الصور الرائعة، المتوجهة، من نشاط الناس في زراعة  
أركان الأرض ونشاطهم من صناعة وزراعة وفنون وأدب واكتشافات  
واختراعات ؟ أن المصور الذي يرسم لو للنحات الذي ينحت مائة شخص  
مثلاً كل واحد مختلف عن الآخر بعد عقريها فما بالك بالذى يخلق بالفعل  
الملايين بلbillions ويعطيها القوة والحياة والعقل والذكاء والعواطف  
والشهوات، والشخصية الخاصة. هل هناك لروع مما وصل إليه المجتمع لو  
أعظم من صور الجمال الذي توصلت إليه الفنون أو أدق وأعجوب من أسرار  
الصناعة والإدارة والتنظيم التي تسير عجلة هذا المجتمع في نعومة ويسر .

لقد أسلم الله تعالى هذه الأرض للإنسان فأضاف إلى جمالها السبرى  
الطبيعي جعلاً حضارياً أضاء كل جنباتها بالنور وخرس في تربتها الزهور  
وأقام على أرضها ناطحات السحاب والمصانع التي تصنع الطائرات  
والمسيارات وأجهزة التلفاز والصواريخ التي تتطلق محررة لأول مرة من  
إطار الجاذبية الأرضية وتصل لأول مرة إلى كوكب آخر غير الأرض.

وأقام الجامعات ومعاهد الأبحاث والمستشفيات دور الفنون على اختلافها من موسيقى أو تمثيل أو سينما.. وهناك الملايين والملايين من البيوت في كل منها أسرة تستمتع بالرقص والحب والسعادة، وإذا كان هذا ليس حظ كل البشرية، وإنما هو مقصور على الدول المتقدمة، فليس هناك ما يقف لفم بقية الدول للوصول إلى هذه الدرجة كما قد يكون لدى هذه الدول من دين أو فكر أو قيم ما تفتقره الدول المتقدمة ..

وعندما يجاوز التطور البشري حدوده، ويبلغ غاياته بحيث يظن الإنسان أنه أصبح سيد الكون عائداً يوم الله تعالى ب نهايته لأنه جاوز طوره وقدره، ومن رحمة الله أن هذه النهاية لا تعنى البقاء والعدم وإنما هي مقدمة لعالم آخر يختلف اختلافاً تماماً عن عالم الحياة الدنيا عالم تتجلى فيه قدرة الله التي لا يحدوها حد ولا يشوبها نقص .

فكيف لا يكون في هذا كله من بدا الخلق حتى أعادته حكمة وغائية وروعة تأخذ بالأباب .

## **الفصل السادس**

### **الآليات ضبط التعددية**

قد يبدو أن التعددية ليست في حاجة إلى الآليات لضبطها لأن طبيعة التعددية تسمح بكل التوجيهات والتيلارات، وبهذا يمكن لكل ناقد أن ينتقد وكل مصلح أن يصلح، فهي كالحرية تصلح أخطاءها وشططها بنفسها ولكن التجربة تعلمنا أن الآليات الطبيعية تتعرض لعوامل ذلانية عديدة تحولها عن غايتها لو نوهناها، وما النقص في الرأسمالية - وهي تطبيق الحرية في الاقتصاد - إلا أنها اعتمدت كلية على آليات السوق وقولنيه كالعرض والطلب والمذاصلة وغيرها مما ظهر أنها غير كافية.

كما دفعت الديمقراطيات غالباً ثمن فقدان الضوابط إذ نشأت بين أطرافها الدعوات الشمولية التي لورت بها ولم ينفعها افتتاح تعدديتها لو اتساع حديتها، لأن عملية الهمم تسهل من عملية النساء ولأن استهواه العواطف والشهوات أكثر تأثيراً من استهاء العقل واستهلام الحكمة. وتعلمنا المباريات الرياضية ضرورة وجود "قواعد اللعبة" التي تحول دون انحراف اللاعبين، كما نجد لكل لعبة حكمها الذي يطبق هذه القواعد ويوازن كل من ينحرف عنها ولم يقل أحد إن قواعد اللعبة وجود الحكم يضيقان من الحرية لو يعرقلان اللعبة. فالكل يجمع عليها دون استثناء ذلك أن وجود قواعد

اللعبة واحترامها هو وحده الذي يكفل ماضي اللعبة واستمرارها ونجاحها ويحول دون تعثرها والانحرافها .

من هنا فإن من المهم التثبت من وجود آليات لضبط المعالجات لا تهدى حيراً على التعديدية، ولكن تنظيمها لها حتى لا تهدر التعديدية نفسها بنفسها أو ينتهي الأمر فيها إلى مجرد عرض الآراء. فإن للغرض من التعديدية - في النهاية - التوصل إلى لوضع تحقق الأهداف المطلوبة ويكمel بعضها بعضاً، وبهذا يتحقق الوصول إلى الهدف وينتهي أن تبتد الجهود مدعى لو أن تحطم بعضها بعضاً، ولكن تظل المعالجة مستمرة لضمان حسن التطبيق أو علاج ما يكشف عنه التطبيق من مأذن .

#### توفر درجة من الوعي السليم بالإسلام ..

للتعديدية في مجتمع إسلامي طابعها الذي يميزها عن التعديدية في مجتمع غير إسلامي. لأن الخصوصية تفرض نفسها، وتعد من مقومات الشخصية العامة وليس الغرض من التعديدية ظمآن هذه "الشخصية الإسلامية" أو المصرية التي تعد خصوصية أخرى ولا تتعارض للخصوصية الإسلامية مع الخصوصية المصرية، وهذه الأخيرة تقدم إضافة خاصة، وهذا مما لا يتعارضان مع التعديدية .

وبعد توفر قدر من الوعي الرشيد بالإسلام من العوامل التي ترشد للتعديدية وتجنبها الانحراف نحو اتجاهات قد تكون سليمة موضوعياً، ولكنها غير مواتية في مجتمع إسلامي أو مصرى أو أنها تؤدى إلى إذابة لو ظهرت لخصوصية تمثل إضافة وتميزاً.. ويفترض أن يشرس الأبوان، وبصفة خاصة الأم بذرة هذا الوعي في الأبناء. ثم تتولاه المدرسة ووسائل الإعلام بتوسيع إطاره، فما لم يفهم الإسلام فيما رشيداً مننا متقدحاً. فقد يؤدى هذا

إلى فض التعددية، أو الضيق بها لو العمل على أن تأخذ لوناً معيناً لو حداً أقصى لا تتجاوزه مما قد يحول دون ظهور التعددية لصلاً .

وما بين الخصوصية التي لا بد وأن تكون لـ التعددية في مجتمع إسلامي، وما بين العمومية التي تفترضها طبيعة التعددية الحرة التي لا تعرف حدوداً أو قيوداً يوجد موظعاً القدم الذي تقف عليه التعددية في مجتمع إسلامي / مصري، ويتناقل من منطلق لا يضيق به الإسلام بل يمكن القول إنه إسلامي خالص هو حرية الفكر التي إن وصلت إلى الإطلاق في القول والكتابة فإنها عندما يراد تطبيقها لابد وأن تصطدم بضرورات الواقع التي قد تكون من القوة بحيث تغلب من يغالبها .

ويحل الإشكال أن الإيمان ما دام صادراً من أفراد، وما دام يتبع الطريقة التي تملّيها "قواعد اللعبة" أعني أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإن درجة من الإصلاح مستحقة وستدخل الصنوف العريضة للمعارضين وتقاير الروايات المذهبية، وستكتسب الدعوة لنصاراً ومع مر الزمن، وبمواصلة الجهد سيمكن التوصل إلى الانتصار في النهاية .

وفي الوقت نفسه فإن حرية المعارضين في غرض وجهات نظرهم في الحفاظ والاتباع وضرورة ملاحظة اعتبارات عديدة متتحول دون انسلاق آراء الذين يريدون الإصلاح والتحرر من إمسار الماضي إلى درجة من الشطط التي لا يمكن التحكم فيها مما قد يؤدي إلى حالة من الفوضى والتحلل يمكن أن تنتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل ويكون لها نتائج سلبية مدمرة على اقتصاد وأوضاع البلاد وهو أمر غير مطلوب بالطبع .

وعندما يكون التصبّب وضيق الأفق مستوىً على جماهير غفيرة - كما هو الحال للأسف في معظم الدول العربية والإسلامية - فإن عملية التعددية ستكون شاقة وقد تتتحول من السجل الفكري إلى العراك اليسدي أو

التهديد بالقتل وليس هناك من حل "مشفى" جاهز، وقد يكون أقرب للطهول هو إبراز توجيهات القرآن الكريم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا لريباً من دون الله فلن نقولوا أشهدوا بأننا مسلمون) . (٦٤ آل عمران) ..

كما يؤدي إلى تقبل التعديدية التعریف بآداب الاقتلاف والاختلاف في الإسلام التي لشرنا إليها في الفصل السابق واستيعابها تماماً .

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أحد ضمادات التعديدية لأنّه ليس إلا ترخيصاً بحرية الفكر وتأكيداً عليها ليجایا وسایا - ولو لعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان من المحتمل دخول منكرات لا عداد لها دون احتجاج أو نقد ولكن من الممكن لبعضها القضاء على التعديدية نفسها، ولكن من الممكن أيضاً أن لا يوجد للمعروف، لو أن تكون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقوف ويستكمل الناقص لو تكون القاعدة هي هذا المجتمع هي "الآن مالية" "أنا مالي" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن يجعل منه أداءً لولد التعديدية، لو الحيف عليها لا أن يكون ضماناً لها. عندما يتخذه لنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار "فولا واحداً" سلاحاً يتشاراً يسلطونه على كل صاحب نظرية مختلفة، وقد لا ينتسب عن هذا شر مستطير ما دام محصوراً في إطار الفكر (أو اللسان - كما يشير الحديث المشهور "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع بسلمه، فإن لم يستطع بقتبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينطلق من إطار الفكر واللسان إلى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل اللسان والقلب عند عدم الاستطاعة .

لقد جاءت صياغة الحديث الذي يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة القرآن. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حين أن الحديث يتضمن تغييراً لا مجرد أمر ونهي وحدد له ثلاث مستويات هي اليد، ولسان والقلب، ولابد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

في نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد إنما يراد به حالات معينة لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد لطنا فردا يحول القائم بجريمة ما كان يشعل نارا في بيته لو يضرب حيوانا بقصوة.. لو حتى يحاول الانتهاء عذراً يصبح اللواد باليد أمراً لا مناص عنه.. أما ما يورده الفقهاء عن سلطة الفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الأبناء والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيا بالرسول الذي ما ضرب أحداً قط، ولا خادماً.

ونعتقد أن تفسير حديث من رأى منكم منكراً.. "لابد أن يمسنصح الأيات العديدة التي حدد الله تعالى للرسول طريقة التبليغ، وضرورة الانتصار عليه، والحضر من أن يلمس لرفض المشركين. لو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المقبول أن يتصور لأحد من علماء المسلمين لو خصتهم أنه أكثر خيرة على الإسلام من الرسول، لو أن عليه أن يفعل أكثر مما ووجه القرآن رسوله ..

ويلاحظ هنا أن القرآن أكد هذا المعنى مراراً وتكراراً وأوضح للرسول ..

- \* «إِنَّ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ، وَلَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» {٢٧٢ البقرة}
- \* «إِنَّكَ لَا تَهُدِي مِنْ أَحَبِّتُ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي لَمْ يَشَاءُ» {٥٦ القصص}

\* (أَفَمِنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرِءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ يَشَاءُ وَرَبِّهِ دِيْنِ  
مِنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَصْنَعُونَ )

{٨ فاطر}

\* (أَفَلَمْ تَكُرِّهِ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) {٩٩ يومن}

وَحَدَّدَ الْقُرْآنُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَفْعَلُهُ عَنْ دِرَجَاتِهِ مِنْ يَدِهِ ..

\* (وَلَئِنْ كَذَبُوكَ فَقُلْ لِي عَلَىٰ وَلَكُمْ عَلَمُكُمْ لَتَقُولُوا بِرِيَّتُونَ مَا أَعْمَلُ وَأَنَا  
بِرِّيٍّ مَا تَعْلَمُونَ) . {٤١ يومن}

\* (فَطَعَلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدِرُكَ لَنْ يَقُولُوا الْوَلَا  
لَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكَافِلٌ) {١٢ هود}

\* (وَلَئِنْ مَا ذَرَيْنَكَ بَعْضُ الذِّي نَعْدَهُمْ لَوْ نَتَوَفَّيْنَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ  
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) . {٤٠ الرَّعد}

\* (فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) . {٩٦ الحِجَّة}

\* (فَإِنْ تُولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) . {٨٢ التَّحْلِيل}

\* (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَهَارٍ فَذَكِرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَشَاءُ  
وَعِيدٌ) . {٤٥ ق}

\* (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا فَالَّذِلِّلُو سَاحِرٌ لَوْ مَجْنُونٌ  
لَتَوَلَّوْنَ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغِيونَ فَقُولُ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ) .

{٥٥ - ٥٦ ذَرْرِيَّةٍ}

\* (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءَ اللَّهِ حَفِظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ  
بِوَكِيلٍ) . {٦ الشُّورى}

• «أما من استغنى فلابت له تصدى وما عليك إلا يزكي» .

{ ٥ - ٧ عبس }

• «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر» . { ٢١ - ٢٢ الغاشية }

و هذه الآيات التي تصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهدایة تقرر حق الآخرين في الرفض، ولرجاء حسابهم إلى الله تعالى بسوم الدين، وتوجه للرسول لأن لا يستشعر شخصاً من ذلك لو يحسن ضيقاً لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النقوص التي جبلها الله، وأن الإلحاد في الوعظ أو الجذب قد يوجد لثرا عكسياً. في حين أنه لو ترك شأنه فربما يعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسناوات ليكفر عن سيناته ويجعل الله تعالى سيناته حسنات.. فضلاً عما يعلم الله من غريب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرفض مستقبل في الإيمان وخدمة الإسلام، وهل هناك من كان أشد عداوة للإسلام - في فترة ما - من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الاعلام .

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهي صفة قلما تتوفر لعامة الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلاً منها الحماسة والاندفاع. ف بهذه الآيات ترسم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يعرف لن دوره ينتهي بمجرد الأداء باللسان أو القلب. لما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا في حالات الضرورة المحددة التي أشرنا إليها آنفاً، وفي غير هذه الحالات تكون أي محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماماً لروح الآيات، ولن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر حرضاً على الإسلام من الرسول الذي كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهدایة أعظم، ومع هذا فقد وجده القرآن «وما عليك إلا يزكي...» .

فهذه الآيات هي التي تسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغیر المنكر وهي حكمة عليه، وضباطة له لأن من أصل الأمور التفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة في التغيير، وما يمترز بها امتزاج اللحم والدم من مشاعر شخصية، والطبعات خصبة ورغبة في النهي والأمر والشخط والتنز" وهي تعود إلى للزهو والغرور، وهو من الموبقات، ومحاولة تلبيس المعنى الخاص للذوب العام، وهي صورة من النفاق النفسي الذي يتطرق إلى النفس بأخفى من دبيب النمل ..

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر باليد تحصرت في تنمية المعاذف وما يمت بصلة إلى الموسيقى وتحطيم أواني الخمر والزام النساء بال النقاب والخمار الخ.. وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكتابين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين، ولم يتحرك أمر بالمعروف لو إنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة.. ولم يفكر أحدهم في الت כדי باستغلال الأغنياء للقراءة وجود من لا يملك قوت يومه.. ومن يوجد لديه القناطير المقطرة من الذهب والفضة، ولم يثر شائئ على الجاهلة والأمية في حين أن أول كلمة في الإسلام كانت أقرأ.. وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يضم للعهد السابق عليه لطلق عليه "الجاهلية" .

وهذه الاتجاهات بالإضافة إلى ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة عن دعاء الخبب لله والثورة لمحلمه ودخول العمل الذاتي في ذلك هو ما يوضح لنا أن الصورة في أذهان "الإسلاميين" سواء القدامى والمحظيون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تختلف عما أمر به القرآن وطبقه الرسول . مما يوحى بأن ما يجوز الأمر باللسان أو النية في القلب إلى ممارسة تغيير باليد منسوخ بنص الآيات القرآنية، بحسب تفاسير حالات

ونرى أن هذه صورة سقية لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كانت وليدة طبيعة المناخ المعاودي ولافقه التقليدي (البدوي) العائد فيها.

أما الصورة المثلث فيفترض أن تختلف شكلاً وموضوعاً. ففي الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليس فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك لأن العمل الفردي، وإن كان له أهميته التي يحرص عليها الدين ويحميه من الأفقيات باعتباره ممثل الحرية الفردية الشديدة، والتي هي أساس كل الحريات. إلا أنه لم يعد - أى العمل الفردي - فعالاً في عالم التنظيم والتهيئة.. وأما في الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهي عن المنكر، ليس فحسب لتباعاً للترتيب في الآية، ولكن أيضاً لأن الإيجاب أفضل من السلب. ويعطي هذا للمضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإلمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضائها للعدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعي الخ.. وقد يرمي ظهور هذه الجمعيات وحيثها في الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأي الآخر ويتصارعان في مجال الفكر ويتحقق التزاء للقضية، ويظهر في النهاية الرأي الأفضل، حتى وإن لم ينفرد بالساحة لأن هذا ينافي طبيعة التعددية.

### مقتضيات التعددية في المجتمع الإسلامي :

إذا أردنا من باب التحديد تعين ما تستتبعه التعددية في مجتمع إسلامي لقى أن أول قاعدة تتبع منها التعددية نفسها هي الحرية كمنطلق لكل خطوة في النشاط الفردي والجماعي. وقد أوضحنا أن الإسلام - على خلاف ما يظن الناس لو رذهب إليه كثير من الدعاة - لا يتناقض مع فكرة الحرية كأصل للتعددية كمظهر وتطبيقه لها فلن توحيد الله لا يحتمل تأويلًا ويستتبع التعددية في كل ما عداه، كما ذكرنا، ولحرية لها ما يقابلها في "اللغة" الدينية

وهو مبدأ البراءة الأصلية وإن الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمها  
لأنه صريح من القرآن .

فضلاً عما توصلنا إليه من أن الحكمة لصل من أوصى بالاعلام  
يجب أن يستلهم عن وضع العواصمات، وهي ما يبعد التضليل وضيق الأفق  
والاقتصار على ما ورد في الكتاب لأن النص عليها ولرد في الكتاب نفسه .

ونطاق الحرية في الإسلام في مجال الفكر والاعتقاد لا يحده إلا تحول ممارسة هذه الحرية إلى ممارسة قذف وسب لو جعلها وسيلة لابتزاز. أما أي حرية تقوم على منطق وتسقى على حجة فلا يجوز لن يوضع عليها قيد، وبالنسبة للسياسات الاقتصادية والسياسية فإن التحفظ الوحيد عليها هو العدل حتى لا تتحول الحرية إلى استعباد للجمهور لو التحكم في الشعوب.

والأخذ بالتعديلية في المجتمع يستتبع وجود صور من التعديلية في المجال السياسي كـ دولي للسلطة وحرية المعارضة وتقيد صلاحيات العاكم بارادة الشعب الخ.. وهي تستتبع في المجال الاجتماعي ظهور منظمات المجتمع المدني و هيئات الإصلاح وكل ما يرى بعض الناس أنه جدير بـ أن يعالج غير هيئة تنظم هذه المعالجة وتعطيها طبيعاً جماعياً كما يجب أن تكون هناك صحافة حرة تماماً باعتبارها "رسالة" فكرية بحيث لا يجوز حتى للمؤسسة الصحفية نفسها أن تحد من هذه الحرية لـو تضع القوود عليها. كما يفترض أن توجد المنظمات النقابية طبقاً لما يراه العمال لأنفسهم باعتبار أنها هيئات يؤمنون بها بأنفسهم للدفاع عن حقوقهم ويدخل في هذا كافة الحريات النقابية التي نصت عليها الاتفاقيات الدولية .

وهناك المجال الحساس للفنون والأدب من شعر أو رواية أو قصة أو تمثيل أو مينما أو موسيقى أو أغان أو رقص.. فكل هذه يجب أن ينظر إليها باعتبارها وسيلة للتعرف على ملكات النفس الإنسانية، وما يمكن أن تقدمه من عطاء وضيافة ونقد وإصلاح أو حتى تشجيع لعولطف والاستماع

بلهـو .. فـهـذـهـ كـلـهـ يـجـبـ أنـ تـكـفـلـ لـهـ الـحـرـيـةـ رـغـمـ ضـيقـ كـثـيرـ مـنـ الدـعـاـةـ  
الـإـسـلـامـيـيـنـ لـلـذـيـنـ يـرـوـنـ فـيـ بـعـضـهـ إـشـاعـةـ لـلـفـحـشـاءـ .. وـقـدـ عـالـجـنـاـ هـذـهـ النـقـطـةـ  
عـنـدـمـ تـعـرـضـنـ لـأـثـرـ غـوـلـيـةـ الشـيـاطـيـنـ الـتـىـ لـاـ مـنـاصـ مـنـهـاـ وـقـدـ أـوـضـحـتـ  
الـتـجـرـيـةـ وـطـبـائـعـ الـأـشـيـاءـ لـأـنـ فـرـضـ الرـقـابـاتـ - كـافـةـ مـاـ كـانـتـ الـحـجـةـ - يـوـجـدـ  
مـفـاسـدـ لـكـثـيرـ مـنـ الـتـىـ لـرـىـ تـجـنبـهـ وـمـنـ ثـمـ فـلـاـ يـجـوزـ لـأـنـ يـكـونـ عـلـيـهـ رـقـابـةـ إـلـاـ  
إـذـاـ وـجـدـ لـلـرـأـىـ لـلـعـامـ لـأـنـ بـعـضـهـ يـمـتـهـنـ لـمـشـاعـرـهـ، وـيـطـلـبـ بـالـتـدـخـلـ

وـنـحـنـ نـرـىـ أـنـ الـخـطـةـ الـمـثـلـىـ لـأـنـ يـتـرـكـ هـذـاـ المـجـالـ لـأـصـحـابـهـ يـتـحـمـلـونـ  
مـسـؤـلـيـاتـهـ وـتـقـعـ عـلـيـهـ لـوـزـافـهـ، كـمـاـ يـسـتـحـقـونـ لـمـجـادـهـ، لـمـاـ الـدـوـلـةـ فـلـاـ تـتـدـخـلـ،  
سـلـبـاـ وـلـاـ لـيـجـابـاـ وـتـنـفـضـ يـدـيـهاـ مـنـهـ، وـلـمـاـ الـفـقـهـاءـ فـلـدـيـهـمـ مـنـدوـحـةـ اـعـتـبارـهـ  
لـنـعـكـاسـاـ لـلـفـجـورـ الـذـىـ الـهـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ لـنـفـسـ الـإـنـسـانـيـةـ لـوـ أـنـهـ حـرـثـ الـدـنـيـاـ  
وـمـنـاعـ الـعـاجـلـةـ الـذـىـ يـتـولـىـ الـحـسـابـ فـيـهـ اللـهـ تـعـالـىـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ .

وـفـيـماـ نـرـىـ، فـإـنـهـ مـاـ دـلـمـ لـصـلـ التـعـدـيـةـ - وـهـوـ الـحـرـيـةـ - هـوـ مـاـ يـتـقـبـلـهـ  
الـإـسـلـامـ فـإـنـ التـعـدـيـةـ وـمـقـضـيـاتـهـ لـاـ تـخـلـفـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـإـسـلـامـيـ عـمـاـ هـىـ  
عـلـيـهـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ الـأـخـرـىـ إـلـاـ فـيـ الـمـدـىـ وـالـدـرـجـةـ وـلـيـسـ فـسـىـ لـلـنـسـوـعـ لـوـ  
الـكـيفـ. لـأـنـ الـإـيمـانـ بـالـقـيـمـ الـإـسـلـامـيـةـ يـحـولـ دـوـنـ الـجـمـسـوـحـ وـالـشـطـاطـ الـذـىـ  
تـتـصـفـ بـهـ مـقـضـيـاتـ التـعـدـيـةـ فـيـ بـعـضـ الـمـجـمـوعـاتـ الـأـوـرـبـيـةـ الـحـدـيـثـةـ.. لـأـنـ  
الـمـجـتمـعـ الـإـسـلـامـيـ، وـلـنـ كـانـ جـزـءـ مـنـ الـمـجـتمـعـ الـبـشـرـىـ الـذـىـ يـخـضـعـ لـقـوـانـينـ  
عـامـةـ - فـإـنـهـ مـجـتمـعـ مـتـمـيزـ لـهـ خـصـائـصـهـ الـتـىـ تـرـتـفـقـ عـلـىـ الصـفـةـ الـعـامـةـ لـهـ.  
وـلـنـ لـمـ تـجـرـدـهـ مـنـهـاـ ...

## مِنْ مَكْتُوبَةِ الْإِحْيَا

- نحو فقه جديد ..  
فى ثلاثة أجزاء ..
- استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن ٢١ ..  
كما تراها دعوة الإحياء الإسلامي ..
- مطلبنا الأول هو الحرية ..
- تثوير القرآن ..

— يصدر قريبا —

الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة  
الكتاب الذى سيحسم قضية الحكم فى الإسلام .

**ملحوظة**

**عن دعوة الإنجيل إلى إسلام**

# ملحق

## عن صمود الإحياء الإسلامي

### ١

## فكرة وفروعها الأخياء الإسلامية

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الإحياء الإسلامي على غيرها، وقد أن الأولان ليسط هذه الفكرة ويقامتها على قواعدها.

فالدعوات الإسلامية قد تدخل ميدان الإصلاح بفكرة سلفى فلا تجدد شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء لأنهم لم يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تزيد أن تعيد المساعدة إلى الوراء، وتلبي طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعملها كله مردود وليس إلا صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، وقلما يمكن تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن بصلاحها على حد سواء، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخذاً مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن تعنى بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن بها تطبيقه ولثار ردود الفعل الخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعرية" لن تكون أخطر وإنما الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم - الخوارج - بأيديهم الرجل الذي كان الرمز الحقيقي للحاكمية - وهو على بين أيدي طالب - وأفسحوا المجال

لماوية الذي جاء بالملك العضوض. وقد تعنى ~~بتدين الآخروى على حساب الدين النبوى~~ .

### لقد هضلت هذه الدعوات .. وأضلت .

إن دعوة الاحياء شئ آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى التفه. وعندما أعملت العقل لنتهي بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامي. كما يختلف عن الموقف الأوروبي السببي الذي فضل أن يتجاهل أعظم قضية فسی الوجود - قضية وجود الله - لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائى، الذي لا يعبر إلا عن طفوحة العقل الإنساني. فما دام الله غير محسوس لا يمكن أن تتأله الحواس، فلا داعي للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقير، فإنهم فعلاً توصلوا إلى فكرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة خائمة ثارت عليها الفلسفة المادية الغالية على الفكر الأوروبي وحكمها القصور البشري الذي يعجز عن أن يتوصّل إلى الصورة المثلثة لله، ولابد أن يلتقي بها وهي من السماء، ولما كانوا فلسفاء وليسوا أئبياء، فقد وقفوا في منتصف الطريق .

وفي الوقت الذي رفض فكر الاحياء الاسلامي طريقة ومنهج علم الكلام، فإنه وجد طلبته في منهج القرآن الكريم وتلاقى العقل مع الوحي في اعتبار أن القضية المحورية في الإسلام (وبالطبع في كل دين) هي الإيمان بالله. ومن أجل هذا جاء البند الأول من ميثاق دعوة الاحياء الإسلامي يبرز هذا الإيمان لولا وقبل كل شيء. ويبرزه في الصورة العقلانية / القرآنية. ويعتبره نقطة البدائية وواسطة العقد في الإيمان الإسلامي الذي يغطي الكون كله وليس الإنسان الذي يعيش على كوكب من لصغر كواكب الكون ..

وهذه الصورة المميزة للإيمان بالله هي ما تميز دعوة الاحياء الإسلامي عن بقية الدعوات كافة.. لوروبية.. لو يعلميه.. وما يعطيها رشد الحياة وعمق الدين والتوصّل مع الكون .

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامي أنها لا تقتصر في النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتقتصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئاً عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامي تتظر إلى الدين من خارجه أيضاً<sup>(١)</sup> بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها أحد الأشجار عن الغابة، وهي تصطحب معارف من خارج الدين أيضاً، كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التي يمكن أن ترمز إلى الله لشبة ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسي هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجماً تحمل أسماء الفلسفه. العلوم، الفنون، والأدب، والمجتمع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم الخ.. وهذه جموعاً تنبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجرى الخاص. بضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما تأتى به هذه الأنهر ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندها يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ وحضارة ونظم الحكم ولرتباطهما بالحرية يعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المربيين للمدنيين، وكيف أن الربا كان يؤدي إلى استرقاق المدنيين نفسه، فإن إيمانه بالحرم الإسلام للربا مستكداً، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدي إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تهديد القرآن بطيهان الحكم والفراعين سيدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن لياماً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحياً. ولعدم معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف والقصارهم في فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما في القرآن من قيم كالحرية والعدالة الخ.. ضحلاً وسطحياً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرم بنى آدم، وندد بالاستغلال، ولكن هذا الكلام ليس له أي مضمون على لديهم، وهم لفهمهم يمتهنون كرامه الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن

(١) ومتى "شرعى" في هذا هو أن القرآن الكريم قرن "الحكمة" بالكتاب كأصل من أصول الدين، ومن ثم بكل استهانه سليم ورشيد خارج الكتاب لا يجد شنوذاً عما أراده القرآن لأنها استلهام للحكمة التي عصى عليها ..

المضمن العملي الذي هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية في العالم ياسر، وطرق الحكم وأفلاط الحضارات وحركات الجماهير الخ.. وهم يجهلون هذا كله لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العزم الديني .

ومن هنا تسمى دعوة الإحياء الإسلامي بالشمول والافتتاح الذي لا يطيقه، ولا يقبله / الذين حصروا أنفسهم في نصوص الأئمة .

ولم يحدث أى فارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ الخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البدائية - وعلى تقىض مسلك الآخرين. عمنا رأينا إلى القرآن الكريم. ولو لتنا - أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضاً كبيراً .

إن دعوة الإحياء الإسلامي عندما اطلقت من القرآن رافضة الاترالب بكلام المفسرين ثراعت لها عظمة وروعة، وعقبالية القرآن وتفتحت لفائقه وعطاءه الذي لا يحده، وكانت تحجبه خشاوات مجلدات التفسير. ومن ثم لمكن أن تستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامي من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن تعززها بشواهد التاريخ .

وقد وجد فقه دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامته الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعته المعايير الدولية لها.

\* \* \*

بعد هذا المنطلق للقرآن وجدنا أنفسنا المسنة، وهي مادة الفقه الإسلامي ولحمته ومداده، وإليها أكثر من القرآن - يعود بناء الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي عامته. وإليها ينصب الفقهاء معظم أحكامهم .

ولكن دعوة الإحياء الإسلامي لم تتراقص، لو تستسلم فابدعت تخريجين حللت بهما لزمه المسنة المستعصية ..

التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذي أحجموا عن ممارسته) قد يستبعد ربع لو خمس ما جاء في الصحاح .

وترفض دعوة الإحياء الإسلامي كل ما يوجه إليها من ادعاء "هل خفي ذلك عن البخاري ومسلم واستكشفتموه فلتم؟" وهي تراه نوعاً من الغرور من المقوله إلى القائل وشكلاً من شكلاً الإرهاب وتقديس الأسلاف الذي ندد به القرآن (وإذا قيل لهم تباعوا ما نزل الله فالوا بل تتبع ما لغيرنا عليه تباعنا) .

نقول بلى، لقد تهيا لنا من وسائل البحث والتعميق وبفضل شروع الثقافة والمعرفة ما لم يتهم السابقين، ومن الطبيعي أن نصل إلى مالهم يصلوا إليه، ولا يمس هذا في شيء إخلاصهم وتقديرهم وتوائهم .

التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطار القرائي إنما جاء بوجي سني، يريد به البقاء ما يقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأييد وحى القرآن .

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامي هذه الفكرة لو تخترعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هي :

١. أن القرآن الكريم أغلق ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للمعتذر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام لغرض.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن تسبباً.. (وما كان ربك نسياناً). ولابد له من حكمة ..

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم لراد للكليات الكبرى للتثبت، لما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لها التثبت ولو لراد لذكرها .

٤. لما كان من الضروري تحديد هذه التفصيلات فإن القرآن وكل تفاصيلها للرسول (... لتبين للناس ما نزل إليهم).

٣. قام الرسول بهذه المهمة لا من تلقاه نفسه، ولكن طبقاً لوحى متنى يختلف في طريقة ومقتضاه عن الوحي القرآني الذي كان له طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآني بحرفيته.

٤. في الوقت نفسه فإن الرسول نهى عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئاً أن يمحوه، وهذه قضية ثانية لا يجوز التماحك فيها، فإن التدوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على بدئ عمر بن عبد العزيز.

وقد صرّح بعض الفقهاء ومفهوم السيد رشيد رضا، أن الصحاوية رفضوا أن يجعلوا الأحاديث دينًا عالماً ودليلاً كالقرآن. وذهب إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستغل ببيانات الإيجاب والتحريم.

بل إن هذا هو ما صرّح به الرسول ﷺ في الحديث عن حوف بين  
مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو من عوب متغير اللون فقال: "اطبعونني  
ما ذمت فرركم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرامه"  
وفي رواية "خطبنا رسول الله بالهجر و هو من عوب متغير اللون فقال: "اطبعونني ما كتبت  
بين أظهركم و عليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث  
الذى اجتمع فيه لربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض يتبين بيان

الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجوداً ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فعملاً به الكرب<sup>(١)</sup>.

بهذين التخريجين لم تعد السنة حقبة فضلاً عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشري الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، ولنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس شرعاً<sup>(٢)</sup>.

بهذين التخريجين لم تعد السنة حقبة فضلاً عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشري الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، ولنها - كما أشرنا إليه آنفاً - تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس شرعاً.

\* \* \*

بعد القرآن والسنة - وجدت دعوة الإحياء الإسلامي - أمامها التلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تتحى كل هذا جانباً، لأنها لا تقبل أن يفك الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميئتها، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما نزل الله" وليس بتابع الأباء والأسلاف. فهو لاء الأسلاف رشم تفانيهم وإخلاصهم - لم يرزقوا الكامل.

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجاً في أن تعلن أن الفقهاء عندما  
أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة المرتد كانوا

(١) انظر الحديث في زيادات محسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبلقني تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص ٦٨٤ - والحديث أورده الميشنى في مجمع الزوائد ١٧٠ / ١ وقال رواه الطبراني في الكبير ورجله موثقون.

(٢) لا يتسع الحال للتفصيل وقد عوْجَ الأُمُرُ في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل أن يعود إليه. وكذلك في كتابنا "الأصول العظيمان. الكتاب والسنة".

يصدرون عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها – ذلك لأنهم ليسوا موصومين، أما دعوى الإجماع فقد نكرها الشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تسبّبده تماماً، أو ان تستأنس به في بعض الحالات وفي جميع الحالات تضع فقهها للخاص .

ومنقدم هنا أمثلة توضح كيف أن هذا الفقه الجديد يحل للعديد من أزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنسا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمة الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منهاء، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قلم به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلزم الوحي ووسائلها فراغة القرآن وتدبره والقربات إلى الله تعالى .

في هذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تترجم نفسها في خضم الدولة، لو السلطة. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدة هي إلى الأفراد. وإذا جازت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو السلطات، لو حتى مثلت نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة الشمولية التي لا تكون دولة العقيدة<sup>(١)</sup> ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة .

إن هذا التكيف قد حل أكير لزمه في مشكلة الحكم الإسلامي لأن بعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكمًا لو هوى ولكن بناء على طبيعة العقيدة .

(١) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن تقول أمة العقيدة .

أما الذي يدخل في مجال الحكم فهو "الشريعة"، والشريعة هي عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمل، الحكم مع المحكومين، الأغبياء مع الفقراء، للرجال مع النساء الخ.. ففي هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل و تكون الو咪زة هي القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح "الدولة" الإسلامية في أحكامها طابعاً عقلياً.

وييمان الأفراد بالعقيدة بتفاعل جديداً مع التنظيم العقلاني للدولة. فتطبيق الدولة للشريعة نتيجة إيمان الأفراد وطلبهم يكفل لهذا التطبيق الصفة الديمقراطية، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمي العقيدة من تمثل الخرافية.

وفي قضية الفنون والأدب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإسلام لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمرة النفس الإنسانية بفجورها وتقوتها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنين - العقيدة والشريعة - تختلفان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التي تتمثل في الفنون والأدب، والعقيدة نفسها تتصل على أن عطاء الله تعالى ليس محظوراً عن الذين يبتغون حرث الدنيا وإن حسابهم إنما يكون الله تعالى يوم القيمة.

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد في المجتمع الإسلامي صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها لرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألم بهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطها إسلامياً، لأنها نشاط إنساني يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيمة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون لو شاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة لو يأمر السلطة.

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المقدمة، فإن دعوة الإحياء رأت بنظرها واحدة أن كلمة "ولا تظلمون" بضم الناء" الأخيرة في الآية (فإن تبتم

فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) يتضمن اعترافاً بأثر التضخم  
وأن تجاهله يؤدي إلى الحيف على الدائن وظلمه، والظلم كريه في الإسلام  
سواء كان المدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم على أكثر أنواع الربا  
لانتشارها في عصر يجعل التضخم أمراً لازماً.

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال  
والصحابي الأعمال التي تضم شافة تقاض المصتعن والمصراع الطبيعى  
وتحوله إلى اختلاف حول قسمة العائد بحسبه العدل الإسلامي. كما لم تجد  
صعوبة في تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيراً يوجب ويقر الاتفاقيات  
الجماعية لو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه في بعض الحالات وهو  
جوهر النقاشية<sup>(١)</sup>.

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إيادة لاستخدام الحق" وما تتطلبه من  
ضيغط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشريعة،قدر ما عزف عن  
"سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاومة الذي وضعه القرآن الكريم "لن  
الحمد لله رب العالمين" كما تستبعد توجيهاته في التوبة والندم وغفران الله  
الذنب .

\* \* \*

هذا عرض سريع للطريقة التي توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامي  
إلى نفسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير  
من الشبهات وحلت للكثير من المشكلات التي لوجنتها تعقيدات الفكر السلفي  
والفقه التقليدي .

---

(٢) انظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥ .

## ٢

### نزعه الماضوية تناقض مع الإسلام

لما كانت نزعه الماضوية هي لبرز ما تقسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، ولأنها هي العمة المشتركة بينها جميعاً، فقد رأينا أن نفرد لتفيدتها هذا الفصل الموجز لعله أن يشفى هذه الدعوات من دلائلها العضال، فمهما كان نيل العاطفة التي شد هذه الدعوات إلى الماضي المجيد، ونحو القرون الثلاثة التي ارتفت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعه يثبت أنها ليست من الإسلام، بل أنها تناقض الإسلام.

وتناقضها مع الإسلام ينقسم من ثرين :

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية في حين أن هذه النزعه تمثل الماضوية .

الثاني: أن الإسلام يمثل الموضوعية، وهذه النزعه تمثل الذاتية .

وفيما يلى تفصيل هذا الإجمال ..

#### المستقبلية والpastor

يغرس الفلاح للبذور في الأرض ناظراً للمستقبل الذي سيجعل هذه البذرة نباتات ياسقة، وهو لا يتصور أنه سيلكل منها فوراً، كما أنه عندما غرسها في الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلاكها لكسب

الحاضر و خسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "النقاوى" بينما كان من الممكن لوزرع هذه النقاوى أن توجد له أطنانا من المحاصيل .

ويوفر التجار من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخلها ويعد استثماراته ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنّه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر.

الإسلام كهذا الفلاح والتجار، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للأخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبليين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقطارة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملاً ودلباً وكذباً وكفاحاً ومجالاً لأداء الصالحات والجتاب السينات وهذا العمل والكافح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها قاطرة للمستقبل في حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تتضع مدى محدوداً لو أن يسخر الأب حياته لمستقبل لبناه .

فكرة العكوف على الماضي واستئهامه مخالفة تماماً للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلاً عن هذا كلّه في التغزل في هذا الماضي والإشادة به، لو تجعل الشحاذة منه عملاً وحرفة، وهي في أعماقها مرض نفسي تثير به النفس عجزها عن العمل، وسيادة الملبيّة عليها، والإسلام في مستقبليته لا ينظر إلى الماضي ولا يقدس القبور، لو يطلي بيانيها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمع بزيارة لها فللاعتبار، وقد رأى أن التمسم باركانها لو تصور أى قوة فيها نوع من الشرك والماضوية في حقائقها "قبورية" ووثنية ..

### الموضوعية والذاتية :

والجانب الثاني الذي تتفاوت فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعي. أي أنه يمثل الفكر، والمبدأ، والقيم في حين أن الماضوية تمثل

للتراث، والأشخاص، والمعارضات. وفي حين لطلق الإسلام على تباعه لاسم "ال المسلمين" أي الذين يؤمنون بالإسلام وقيمه الموضوعية فلن الماضوية جعلت أصحابها يحملون لاسم "السلفية" وما السلفية إلا تباع السلف وطرق قسم ومذاهبيهم وقد رفض الإسلام هذا وسمى تباعه المسلمين لو المؤمنين ويتبين مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وإن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تندد بالذين لذا دعوا إلى ما نزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما أفينا عليه تباعنا (السلفية) .

ولما كان الإسلام محكمًا في بنائه: كالجسد الواحد الذي يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتناقض مهام عضو مع مهام بقية الأعضاء لو تعلم ما يسع إلى الجسد بل تلاقى كلها في العمل له. فلن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقي مع نفوره من الذاتية ويجتمع هذا وذلك في نهيء عن تقدير الأشخاص أو توثيق الأشياء لو تباع الأباء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتنديه بالقبور ولمره بالتفكير ونهيه عن التقليد، وبهذا يكون الإسلام بمعتقداته ومواضعيته في واد والسلفية بماضويتها وذلتتها في واد آخر .

وقد يجعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالمضمية كأحد رموزها ومقصاتها، فإنها في الحقيقة كانت تومن بفكرة تناقض الإسلام ! وأن هذا من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكن يجب أن تتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات .

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء في رفض الماضوية وسلفيتها وذلتتها لأنهما معاً يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية .

وأى شئ أكثر حسما وقوه في التهديد باتباع الآباء والأجداد من هذه الآيات .

- «(والذين إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أفينا عليه آباءنا لو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون). {١٧٠ البقرة}
- «(قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا لو لو كان آباءهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون). {٤٠ المائدة}
- «(قالوا أجهت لتفتنا عما وجدنا عليه آباءنا). {٧٨ يونس}
- «(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميت بها أنتم وأبااؤكم). {٤٠ يونس}
- «(قد كنتم أنتم وأبااؤكم في ضلال مبين). {٤٥ الأنبياء}
- «(إنا وجدنا آباءنا على أمة ولنا على آثارهم مهتدون). {٢٢ الزخرف}
- «(اتهانا أن نعبد ما يعبد آباءنا). {٦٢ هود}

وكل الآيات أو الأحاديث التي تشيد باشخاص فإما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضفي القرآن على أحد من المخلوقين عصمة لو توئلنا وقد خص الله تعالى رسالته بروحه وتوجيهه، وللهذا جاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهي صفة ليست لغيره، وعندما أمرت الصحابة فإنه أمرتهم لأنهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا مجددا يبتغون فضلا من الله ورضوانا» وختم الآية «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» وكل آيات المدح في القرآن تتصل على «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ولم يعد الله تعالى للعرب بوراثة الأرض ولكن "الصالحين" ولم يعط للأنبياء من سلطنة سوى التبليغ والبيان وحذرهم في عبارات جازمة نجاوز هذا .

وقال الرسول "مثٰل لِمَنْيٰ مثٰل المطر لا يدرى أوله خيرٌ لم يخرُّ" بسٰل  
لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا ولم يرُوه، وأورد الإمام أحمد بن حنبل في  
مسنده عدداً من الأحاديث بهذا المعنى منها :

\* عن أبي محييز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضي الله عنه حدثنا حدثنا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حدثنا جيداً، تغدينا مع رسول ﷺ ومعنا أبو عبيده بن الجراح فقال يا رسول هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهتنا معك قال نعم قوم يكوفون من بعديكم يومئذ بي ولم يروني .

\* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ودبت لني لقيت إخوانى فقال أصحاب النبي ﷺ نحن إخواتك. قال لنتم أصحابي، ولكن إخوانى الذين آمنوا بي ولم يروني .

\* وعن أبي إمامه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ طوبي لمن آمن بي ورأني مرة وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات <sup>(١)</sup>.

وهذا بدل على أن الإخلاف قد يكونون أفضل من الأصلاف وأن  
الذين لم يشاهدو النبي وأمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وأمنوا به .

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه "والذى نفس محمد بيده لو ان أحدا اتفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". فإن ذلك إنما كل لأن كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو - في النهاية - يصب في تيار المستقبلية وال موضوعية .

(١) انظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشیان للشيخ الوالد رحمه الله ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٧ وقد أورد البخاري في حلق أفعال العباد رواية عن أبي جعفر بالمعنى نفسه .

فہرست

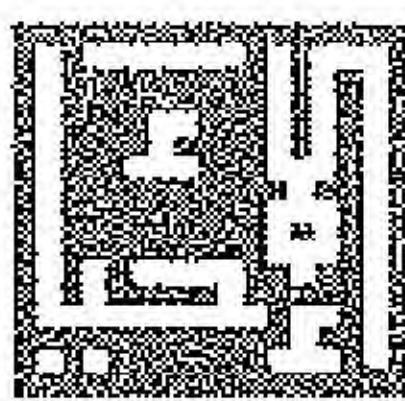
٣	مقدمة ..
٤	<b>الفصل الأول :</b> توحيد الله يستتبع التعبدية فيما عداه ...
٥	<b>الفصل الثاني :</b> إشارات القرآن إلى التعبدية . قواعد التعبدية في القرآن .
٦	<b>الفصل الثالث :</b> تحرير تعبدية الأديان ..
٧	السبب التاريخي .
٨	السبب الموضوعي .
٩	<b>الفصل الرابع :</b> الحكمة .
١٠	أصل مسكونت عنه من لصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعبدية ...
١١	ماذا تعني الحكمة .
١٢	لماذا نكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب الكتاب .
١٣	<b>الفصل الخامس :</b> التعبدية في مجتمع إسلامي ..
١٤	قضية الاختلاف والاختلاف .
١٥	هدایة الأنبياء .
١٦	شمولية الشياطين .
١٧	<b>الفصل السادس :</b> أدوات ضبط التعبدية
١٨	توفر درجة من الوعي للسليم للإسلام .
١٩	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٢٠	مقتضيات التعبدية في المجتمع الإسلامي .
٢١	ملحق عن دعوة الإحياء الإسلامي :
٢٢	١. فكر وفقه دعوة الإحياء .
٢٣	٢. نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام .



رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٨٥ لسنة ٢٠٠٤

التقييم الشعري I.S.B.N. 977-5378-33-8





## الشَّرْعُ الْمُكَفَّلُ فِي مُجَمَّعِ إِسْلَامِيٍّ

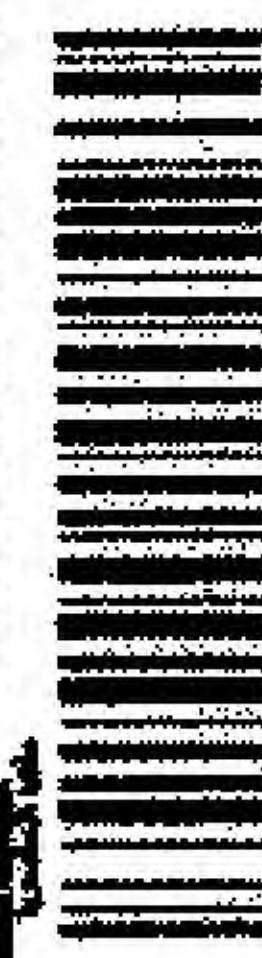
توهم كثير من الناس أن الأمة الإسلامية لما كانت أمة التوحيد، فإن هذا يفترض الأحادية في التنظم، بمعنى أن يكون هناك رئيس واحد، ونظام واحد، وحزب واحد، وصحافة واحدة الخ ..

ويذهب هذا الكتاب عكس ذلك تماماً ويوضح أن توحيد الله تعالى يستتبع التعددية فيما عداه، فالتوحيد مقصود به الله وحده، ومد معنى الواحدية على غيره يمكن أن يكون نوعاً من الشرك، ويستشهد على ذلك بعده كبير من الآيات القرآنية التي تقرر التعددية وتتقبل الإجتهادات داخل الإطار الفسيح، بل إن انفتاح القرآن وصل إلى درجة الاعتراف بكل الأديان، وبكل الرسل وشخص الله تعالى نفسه بالفصل فيما فيه يشتبهون ..

وتحت عنوان «الحكمة»: أصل مسكونة عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية، يوجه الكتاب الافتياه إلى أن القرآن يدعو إلى «الكتاب والحكمة»، وي Ferdinand ما ذهب إليه الشافعى من أن الحكمة هي السنة لأن القرآن يوردها في كثير من الآيات بما ينافي هذا المعنى فضلاً عن أن السنة نفسها تدعوا إلى الحكمة وتعتبرها ضالة المؤمن، وأن تقرير القرآن للحكمة أصلاً من أصول الإسلام يوجب استلهام النافع والمفيد من كل الثقافات والحضارات كائنة ما كانت وأن المسلم يكون أحق بها.

وفي فصل خاص يعرض الكتاب تصوره عن «التعددية في مجتمع إسلامي» فيشير إلى مبدأ رئيسي في الإسلام هو قبول الاختلاف وأنه لا يثير عداوة أو حساسية لأنـه مما لا مناص عنه، ولأن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيه يوم القيمة وأن الاختلاف غير الخلاف، فالاختلاف يوجب التعددية ولكن الخلاف يؤدي إلى الواحدية ثم ينتقل إلى العاملين الرئيسيين في المجتمع الإسلامي إلا وهو هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

وفي الفصل الأخير ضوابط التعددية يتحدث الكتاب عن أنه وإن كانت من ناحية المبدأ ليست في حاجة لآليات تضبطها، لأنـها - كالحرية - تضر بنفسها، إلا أن التجربة ثبتت ضرورة وجود هذه الآليات التي تضع «قواعد» وتكفل لها الاستمرار وتحول دون الانحراف. ويعرض الكتاب في هذا ا ضرورة توفر حد أدنى من الفهم الإسلامي الرشيد الذي يرفض التعصب كما يعرض «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو يعالج هذا الصـ معالجة تفصيلية ويقارن ما بين الآيات المتعددة في القرآن وبين حديث منكم منكراً الخ .. المشهور ويوجب ضبط الحديث بالقرآن بـحيث ينـ باليد على الحالات العاجلة التي تؤدي السلبية فيها إلى وقوع جريمة المفهـم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويورد رأياً لـلامـ حسن البنا أبداً عندما حطمت مجموعة من «مصر الفتاة» بعضـ الحالـ



0489324

1/4

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)